

كُلِّيَّةُ الْآدَابِ
قِسْمُ الدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

محاضرات في
مصادر ومناهج المحدثين

د / عماد علي عبد السميع حسين
أستاذ الدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ المساعد – بِكُلِّيَّةِ الْآدَابِ جَامِعَةِ أَسْيُوط

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ ونستعينُه ونستغفِرُه، ونعوذ به مِن شرورِ أنفسنا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يهدهِ الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ، وأشهدُ أن محمداًعبدُه ورسولُه، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} ،{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} ، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} ، أَمَّا بَعْدَ :فإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ- ﷺ - وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

فلقد ثبت واستقر لدى أهل الإيمان أن الوحي الإلهي هو مصدر الهداية الرباني ، وأن هذا الوحي ليس القرآن فقط ، بل السنة النبوية جزء منه ، وقد دلَّ القرآن الكريم على هذا كما في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ}. [١]

---

[١] سورة الجمعة ، الآية ٢

ويتكرر هذا السياق في عدة مواضع من القرآن تأكيداً على أن السنة من الوحي ، وقد ذهب جمهور أهل العلم من المفسرين والأصوليين – وغيرهم – إلى أن الحكمة التي عطفت على الكتاب في تلك السياقات شيء آخر غير القرآن، وهي ما أطلعه الله عليه من أسرار دينه وأحكام شريعته ، ويعبر العلماء عنها بالسنة ، وعند أبي داود بسنده إلى المقدام بن معد يكرب عن رسول الله – ﷺ – قال: " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته ، يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه .. ". [1]

وعنده –أيضاً– عن العرباض بن سارية – رضي الله عنه – قال:(صلى بنا رسول الله – ﷺ – ذات يوم ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها الأعين ، ووجلت منها القلوب – فقال رجل يا رسول الله : كأنها موعظة مودع ، فقال: "اتقوا الله ، وعليكم بالسمع والطاعة وإنْ عبداً حبشياً ، وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ..). [2]

---

[1] رواه أبو داود : كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، ص / ٦٩٩ برقم (٤٦٠٤) ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١١٧/٣ .

[2] رواه أبو داود في سننه : كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، ص / ٦٩٩ برقم (٤٦٠٧) ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١١٩/٣ .

وقد علق الشُّرَّاح على هذه الأحاديث بتعليقات تدل على أنهم فهموا منها الدلالة على أن السنة من الوحي : قال الخطابي: (فإنه أي النبي – ﷺ – يحذر بذلك مخالفة السنن التي سنها رسول الله – ﷺ – مما ليس له في القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض ، فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن، وتركوا السنن التي قد ضُمِّنت بيان الكتاب فتحيروا وضلوا). (١)

قال ابن حزم – رحمه الله: (..فصح أن كلام رسول الله – ﷺ– كله في الدين وحي من عند الله – عز وجل – لاشك في ذلك ، ولا خلاف بين أحد من أهل اللغة والشريعة في أن كل وحي نزل من عند الله – تعالى – فهو ذكر منزل). (٢)

خطة الكتاب :

وقد قسمت هذا الكتاب إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة :

الفصل الأول : الوحي الإلهي في السنة النبوية ، وفيه ستة مباحث :

- المبحث الأول: تعريف الوحي لغة واصطلاحاً.
- المبحث الثاني: إثبات أن السنة من الوحي الإلهي.
- المبحث الثالث: كيفية تلقي النبي – ﷺ – لوحي السنة المطهرة.
- المبحث الرابع: كيفية أداء النبي – ﷺ – لوحي السنة.

---

(١)معالم السنن شرح سنن أبي داود : للخطابي ، ٤ / ٢٩٨.

(٢)الإحكام في أصول الأحكام ، على بن أحمد بن حزم ، ١ / ١٣٥

تمهيد :

أولاً : جملة مختصرة من آداب طالب الحديث :

أ- ينبغي لطالب الحديث: إخلاص النية لله عز وجل في طلبه، والحذر من التوصل به إلى أعراض الدنيا، لما جاء في ذلك من الجزر الشديد والتهديد الأكيد.

ب- وينبغي له أن يتخلق بالأخلاق الفاضلة والآداب الجميلة، وأن يستفرغ الوسع في التحصيل، طالباً من الله تعالى التوفيق والتسديد والتيسير.

ج-وأن يبدأ بالسماع من أرجح شيوخ بلده، إسناداً وعلماً وشهرة وديناً، فإذا فرغ من مهماتهم وسماع عواليهم ارتحل إلى غير بلده، كعادة الحفاظ المبرزين، ليظفر بأعالي أسانيدهم وليستفيد من مذاكرتهم ومجالستهم وفوائدهم وما هو مختصّ بهم، فقد رحل جابر بن عبد الله الأنصاري إلى عبد الله بن أُنيس شهراً كاملاً في حديث واحد.

وقد جاءت أدلة كثيرة في مشروعية ذلك، وكثرة أجره وثوابه. حتى قال سيدي إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: إن الله ليدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أصحاب الحديث.

د- وينبغي لطالب الحديث: أن يعمل بما سمعه من أحاديث العبادات، والفضائل والآداب والأخلاق وغير ذلك، فذلك زكاة ما جمع من الحديث وسبب لحفظه، فقد كان بشر الحافي يقول: يا أصحاب الحديث أدوا

زكاة الحديث: من كل مائتي حديث خمسة. قال عمرو بن قيس الملائي: إذا بلغك شيء من الخبر فاعمل به ولو مرة تكن من أهله. وقال وكيع: إذا أردت حفظ الحديث فاعمل به.

هـ- وينبغي له: تعظيم شيخه فانه سبب الانتفاع به، وأن يعتقد جلالته ورجحانه، ويتحرّى رضاه ويحذر من سخطه، ولا يضجره بالتطويل عليه، ويستشيره في أموره التي تعرض له، وما يشتغل فيه وكيفية اشتغاله. وأن يصبر على جفوة شيخه، قال الأصمعي: من لم يتحمل ذل العلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً.

وأن لا يضيع وقته في الاستكثار من الشيوخ لمجرد اسم الكثرة وصيتها.

و- ولا يستنكف أويستحي أن يأخذ العلم ممن هو دونه في نسب أو سنّ أو غيره. فقد قال مجاهد: لا ينال العلم مستحي ولا مستكبر، وقال عمر بن الخطاب: من رقَّ وجهه رقّ علمه. وقالت أمنا السيدة عائشة رضي الله عنها: نعم النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين.

وقال وكيع: لا ينبل الرجل حتى يكتب عمن هو فوقه، وعمن هو مثله، ومن هو دونه.

ز- وينبغي لطالب الحديث: أن يتعرف صحة الحديث وحسنه وضعفه ، ومعانيه ولغته وإعرابه وأسماء رجاله، محقِّقاً كل ذلك، معتنياً باتقان مشكله حفظاً وكتابةً، مقدماً في ذلك الصحيحين على سائر كتب

السنن، والأهم من المسانيد والجوامع وكتب العلل، والأسماء وضبط الأسماء وغريب الحديث ونحو ذلك، على غيره.

ح- وينبغي أن يذاكره بمحفوظه ويباحث أهل المعرفة. قال علي رضي الله عنه: تذاكروا هذا الحديث، إنْ لا تفعلوا يدرس. وقال ابن مسعود: تذاكروا الحديث فان حياته مذاكرة. وقال ابن عباس: مذاكرة العلم ساعةً خير من إحياء ليلة.

ثانياً : ضرورة الاعتناء بالحديث :

(من أهم أنواع العلوم تحقيق معرفة الأحاديث النبوية أعني: معرفة متونها وأسانيدها وما يتعلق بهما ودليل ذلك أن شرعنا مبني على الكتاب العزيز والسنن المروية وعلى السنن مدار أكثر الأحكام الفقهية لأن أكثر الآيات الفروعية مجملة وبيانها في السنن قال الله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} ، وقد اتفق العلماء: على أن من شرط المجتهد من القاضي والمفتي أن يكون عالما بالأحاديث المتعلقة بالأحكام فثبت أن الاشتغال بالحديث متأكد وأنه من أفضل أنواع الخيرات وآكد القربات، وقد قال سفيان الثوري: ما أعلم عملا أفضل من طلب الحديث لم أراد به الله عز وجل ونحوه عن ابن المبارك وكيف لا يكون كذلك وهو مع ما ذكرناه مشتمل على بيان حال أفضل الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولقد كان شأنه فيما مضى عظيما وأمره مفخما جسيما عظيمة جموع طلبته رفيعة مقادير حفاظه وحملته.

وكان أكثر اشتغال العلماء في الأعصار الماضية به حتى لقد كان يجتمع في المجلس الواحد من مجالس الحديث الآلاف الكثيرة من الطالبين له فتناقص ذلك في هذه الأزمان وضعفت الهمم فلم يبق إلا آثار قليلة من آثارهم بل ذهب في هذا الوقت أثره واضمحل ذكره وخبره فالله المستعان على هذه المصيبة وغيرها من المصائب، وبالجملة فيتأكد أو يتعين على من فيه أهلية الاعتناء به والتحريض عليه لما ذكرناه ولأن ذلك أيضا من النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وذلك هو الدين كما صح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وقد قال بعضهم: من جمع أدوات الحديث استنار قلبه واستخرج كنوزه الخفيه وذلك لكثرة فوائده الظاهرة والكامنة وهو جدير بذلك فإنه كلام أفصح الخلق ومن أعطي جوامع الكلم لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم وحقيق لمن اشتغل به وانحاش إليه وقصر أغراضه من العلوم كلها عليه وتخلق بأخلاقه وتأدب بآدابه أن يعد من أفراد هذه الأمة المحمدية وخواص أهل الله تعالى وأهل رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد أخرج الشيخ نصر المقدسي في كتاب الحجة على تارك المحجة بسنده إلى الإمام أحمد أنه قيل له: هل لله في الأرض أبدال؟ قال: نعم قيل: من هم؟ قال: إن لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال فما أعرف لله أبدالا نقله السيوطي في تأليفه المسمى: بالخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال وسئل أيضا عن الطائفة التي ورد في الحديث أنها لا تزال منصورة لا يضرها من خذلها حتى تقوم الساعة

فقال: إن لم تكن أهل الحديث فلا أدري من هي؟ وكان الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: إذا رأيت أصحاب الحديث فكأني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم الغالب أن تحقيق هذا العلم إنما يحصل بمن أعطاه كله واستغرق فيه أوقاته دون من يكثر منه الالتفافات إلى غيره من العلوم فإنه لا يحققه كل التحقيق، قال الخطيب البغدادي: علم الحديث لا يعلق – يعني علوقا تاما إلا بمن قصر نفسه عليه ولم يضم غيره من الفنون إليه وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: أتريد أن تجمع بين الفقه والحديث هيهات! وكان شيخ الإسلام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الأصبهاني الهروي يقول: هذا الشأن يعنى الحديث شأن من ليس شأنه سوى هذا الشأن ولذا قدم فيه كلام الحافظ السخاوي على كلام السيوطي عند التعارض لأن صاحب فن يغلب صاحب فنون لكن قد يجمع الله بينهما جمعا كاملا لمن شاء من خلقه كما وقع لإمامنا مالك رضي الله تعالى عنه ولغيره من بعض الأئمة، وقد قالوا: إن هذه العلوم الثلاثة وهي: الحديث والفقه والتصوف قل إن تجتمع في شخص على وجه الكمال وإذا اجتمعت فيه فهو فرد وقته وألقاب عصره بل ينبغي أن تشد الرحال إليه فإنه لا مثل له وفضل الحديث وأهله كثير جدا وقد أفرد بالتآليف الكثيرة.

نسأله سبحانه وتعالى أن يصرف إليه بقيتنا ويوجه إلى العناية به وجهتنا وكليتنا ويحفظنا من الشيطان الرجيم ويجعلنا من المتطفلين على

أبواب هذا النبي الكريم وخدام حضرته العلية المتأدبين بآداب سنته الزكية صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين).[١]

[١]) الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة: أبو عبد الله محمد بن أبي الفيض جعفر بن إدريس الحسني الإدريسي الشهير بـ الكتاني ،المحقق: محمد المنتصر بن محمد الزمزمي،ط٦، دار البشائر الإسلامية ، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

الفصل الأول

الوحي الإلهي في السنة النبوية ، وفيه ستة مباحث :

- المبحث الأول: تعريف الوحي لغة واصطلاحاً.
- المبحث الثاني: إثبات أن السنة من الوحي الإلهي.
- المبحث الثالث: كيفية تلقي النبي - ﷺ - لوحي السنة المطهرة.
- المبحث الرابع: كيفية أداء النبي - ﷺ - لوحي السنة.
- المبحث الخامس: وحي السنة بين التوقيف والاجتهاد.
- المبحث السادس: جمع السنة النبوية.

المبحث الأول

تعريف الوحي لغة واصطلاحاً

أولاً – الوحي في اللغة :

قال ابن منظور (الوحي: الإشارة ، والكتابة ، والرسالة ، والإلهام ، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك ، يقال: وَحَيْتُ إليه الكلام وأوحيتُ .. والوحي يطلق على المكتوب والكتاب ..). [١]

وقد ورد استعمال الوحي بهذه المعاني في القرآن الكريم ، فالوحي بمعنى الإشارة ، منه قوله تعالى **{ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً }** [٢] ، ومن الوحي بمعنى الإلهام قوله تعالى: **{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ .. }** [٣] ، ومن الوحي بمعنى الرسالة قوله تعالى **{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ..}** [٤]، ومن الوحي بمعنى الكلام الخفي قوله تعالى **{.. يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً }** [٥] أي يُسرُّ بعضهم إلى بعض ، وقيل سُمِّي الوحي

---

[١] لسان العرب: جمال الدين ابن منظور ، ١٥/٢٤٠ (مادة وحي) ، وانظر مقاييس اللغة: أحمد بن فارس ، ص/١٠٤٦

[٢] سورة مريم ، من الآية / ١١

[٣] سورة القصص ، من الآية / ٧

[٤] سورة النساء ، من الآية / ١٦٣

[٥] سورة الأنعام ، من الآية / ١١٢

الإلهي وحياً لأن المَلَكَ أسرّه عن الخلق ، وخَصَّ به النبي – ﷺ – المبعوث إليه. [١]

وذكر صاحب المصباح المنير المعاني اللغوية للوحي ، ثم قال: (.. غلب استعمال الوحي فيما يلقى إلى الأنبياء من عند الله تعالى ، ولغة القرآن الفاشية أوحى بالألف ، والوحا : السرعة ، يُمَد ويُقْصر ..). [٢]

وقال الحافظ ابن حجر: (الوحي لغة: الإعلام في خفاء ، والوحي أيضاً: الكتابة والمكتوب والبعث والإلهام والأمر والإيماء والإشارة والتصويت شيئاً بعد شيء ، وقيل : أصله التفهيم .. وكل ما دللت به من كلام أو كتابة أو رسالة أو إشارة فهو وحي) . [٣]

ثانياً – الوحي في الاصطلاح :

قال الحافظ ابن حجر: (الوحي شرعاً: الإعلام بالشرع) [٤]، وقال الحافظ البدر العيني: (الوحي في اصطلاح الشريعة: هو كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه). [٥]

---

[١] انظر: لسان العرب ، ٢٤١/١٥ ، وكتاب العين: للخليل بن أحمد ، ص / ١٠٣٨

[٢] المصباح المنير: أحمد بن محمد بن على الفيومي المقري ، ص / ٣٨٧ (مادة وحي) .

[٣] فتح الباري بشرح صحيح البخاري : أحمد بن على بن حجر العسقلاني ، ١ / ١٥ .

[٤] المرجع السابق – الموضع نفسه .

[٥] عمدة القاري شرح صحيح البخاري : بدر الدين محمود بن أحمد العيني ، ٣٧/١ .

وكذلك قال القسطلاني : (الوحي في اصطلاح الشرع : إعلام الله تعالى أنبياءه الشيء، إما بكتاب أو برسالة ملك ، أو منام ، أو إلهام .. وقد يطلق على الموحي كالقرآن والسنة من إطلاق المصدر على المفعول ، قال تعالى: **{ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى }** [١]). [٢]

وقال الزرقاني: (الوحي معناه في لسان الشرع: أن يُعلم الله – تعالى – من اصطفاه من عباده ؛ كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة سرية خفية ، غير معتادة للبشر). [٣]

وعرَّفه الشيخ/ رشيد رضا فقال : (الوحي: عرفان يجده المرء في نفسه، مع اليقين بأنه من قِبل الله – تعالى – بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يسمعه ، أو بدون صوت). [٤]

وذكر الدكتور/ يوسف خليف المعاني اللغوية للوحي ، ثم قال: (أما الوحي الخاص بالأنبياء والرسل الذين يصطفيهم الله لرسالاته : فقد

---

[١] سورة النجم ، الآية / ٤ .

[٢] إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: لأبي العباس شهاب الدين أحمد القسطلاني ، ٨٣/١ ، وانظر: تحفة الباري شرح صحيح البخاري : زكريا بن محمد الأنصاري ، ٦/١.

[٣] مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني ، ١ / ٧٩

[٤] الوحي المحمدي : محمد رشيد رضا ، ص / ٣٤ ، وانظر: مدخل إلى القرآن والحديث : د. عدنان زرزور ، ص / ٧٤

اتفق العلماء على أن معناه: الإعلام الخفي بأمور الرسالة الإلهية التي يكلفون بها). [(١)]

وقال الدكتور/ سليمان معرفي : (الوحي: هو إعلام الله تعالى مَنْ اصطفاه من عِباده؛ كل ما أراد إطلاعه عليه بطريقة سرية خفية غير معتادة).[(٢)]

وحاول بعض الباحثين أن يدفع عن معنى الوحي أن يكون للمُوحَىَ إليه دخل فيه، فقال: (الوحي الشرعي: يطلق على ما يتلقاه النبي من خارج نفسه ، نازلاً عليه من السماء ، .. سواء بواسطة ملك الوحي المرسل من الله – تعالى – أو بالتكليم من وراء حجاب، أو بالنفث في الرُّوع–أي إلقاء المعنى في القلب)[(٣)].

ويلاحظ في هذه الأقوال عدة أمور:

الأول: أنه رُوعي في معنى الوحي معنيان مهمان وهما: الخفاء والسرعة.

الثاني: أن المُوحَى به هو الشرع وألوان الهداية والعلم.

الثالث: أن الوحي بهذا المعنى يشمل القرآن الكريم والسنة معاً.

---

(١) دراسات في القرآن والحديث : د. يوسف خليف ، ص / ٢٣

(٢) في علوم القرآن : د. سليمان معرفي ، ص / ٢٩

(٣) الواضح في علوم القرآن : د. مصطفى ديب البغا ، ومحي الدين ديب ، ص / ١٧ ، ١٨ ، وانظر: مباحث في علوم القرآن: د. القصبي محمود زلط ، ص / ٣٠

المبحث الثاني

إثبات أن السنة من الوحي الإلهي

لقد تضافرت الأدلة على أن السنة النبوية من الوحي الإلهي ، وفي هذا المبحث سأورد أهم تلك الأدلة ، مع بيان وجه الاستدلال فيها.

أولاً – أدلة القرآن على أن السنة من الوحي :

لقد ورد في مواضع عديدة من كتاب الله – عز وجل – ما يدل على أن السنة من الوحي الإلهي إلى النبي – ﷺ – وبسياقات مختلفة ومن ذلك:

١ – جاء في وصف النبي – ﷺ – أنه يُعلِّم الناس ، الكتاب والحكمة ، تارة في ذكر دعوة النبَييْن الكريَميْن إبراهيم وإسماعيل حين قالا – كما أخبر الله سبحانه: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [١]

٢ – وجاء في معرض الامتنان على المؤمنين ببعثة النبي – ﷺ – أنه يعلمهم الكتاب والحكمة – أيضاً – قال تعالى: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

---

[١] سورة البقرة ، الآية ١٢٩

وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [١]، وقال أيضاً:{ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}. [٢]

٣ – وفي أول سورة الجمعة أخبر الله – تعالى – عن تسبيح الكون له ، ثم قال: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ}. [٣]

٤ – وفي سورة الأحزاب تذكير خاص لأمهات المؤمنين بالوحي الذي يتلى في بيوتهن، قال تعالى: { وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً }. [٤]

وقد ذهب جمهور أهل العلم من المفسرين والأصوليين – وغيرهم – إلى أن الحكمة التي عطفت على الكتاب في تلك السياقات شيء آخر غير القرآن، وهي ما أطلعه الله عليه من أسرار دينه وأحكام شريعته ، ويعبر العلماء عنها بالسنة ؛ فقد روى ابن أبي حاتم بسنده إلى الحسن البصري أنه قال في قوله تعالى {

[١] سورة آل عمران ، الآية ١٦٤

[٢] سورة البقرة ، الآية ١٥١

[٣] سورة الجمعة ، الآية ٢

[٤] سورة الأحزاب ، الآية ٣٤

..وَالْحِكْمَةَ } : (الحكمة: حكمة السنة) ، وروى عن أبي مالك ومقاتل بن حيان وقتادة ويحيى بن أبي كثير نحو ذلك. [١]

وقال الشافعي – رحمه الله: (فذكر الله الكتاب وهو القرآن ، وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ، وهذا يشبه ما قال والله أعلم ، لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة ، وذكر الله مَنَّه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز – والله أعلم – أن يقال الحكمة هنا إلا سنة رسول الله ، وذلك أنها مقرونة مع الكتاب ، وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحتم على الناس إتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقول فُرض إلا لكتاب الله وسنة رسوله ، لما وصفناه من أن الله جعل الإيمان برسوله مقروناً بالإيمان به). [٢]

وقال الفخر الرازي : (قال الشافعي: الحكمة سنة رسول الله – ﷺ – وهو قول قتادة ، وقال أصحاب الشافعي – رضي الله عنه – والدليل عليه أنه تعالى ذكر تلاوة الكتاب أولاً وتعليمه ثانياً ، ثم عطف عليه الحكمة ، فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئاً خارجاً عن الكتاب ، وليس ذلك إلا سنة الرسول عليه السلام). [٣]

---

[١] تفسير القرآن العظيم: عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ، ١ / ٢١١

[٢] الرسالة: محمد بن إدريس الشافعي المطلبي ، ص / ٧٨

[٣] مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، ٢ / ٧٤

وقال الطبري: (عن قتادة قال : الحكمة أي السنة .. والصواب من القول عندنا في الحكمة أنها: العلم بأحكام الله التي لا يُدرك علمها إلا ببيان الرسول - ﷺ-). [١]

وقال القرطبي : (الحكمة: السنة وبيان الشرائع ، وقيل: الحكم والقضاء خاصة ، والمعنى متقارب ، ونسب التعليم إلى النبي - ﷺ - من حيث هو يُعطي الأمور التي ينظر فيها ، ويعلم طريق النظر بما يلقيه الله إليه من وحيه) . [٢]

وقال ابن كثير : (الحكمة: يعني السنة ، قاله الحسن وقتادة ومقاتل ابن حيان وأبو مالك وغيرهم) . [٣] وقال القاسمي: (الحكمة: هي السنة ، فسرها بها كثيرون). [٤]

٥ - ومن أدلة القرآن على أن السنة من الوحي: قوله تعالى: { وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى } [٥] ؛ (أي ما يصدر نطقه عن الهوى ، لا بالقرآن ولا بغيره ، فـ (عن) على بابها ، ومثل النطق الفعل ، وقال أبو عبيدة إنَّ (عن) بمعنى الباء ، أي بالهوى

---

[١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري ، ٢ / ٥٧٦ ، ٥٧٧

[٢] الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ، ١ / ١٠١ ، وانظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، ٢١٢/١.

[٣] تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، ٢ / ٩٧ .

[٤] محاسن التأويل : محمد جمال الدين القاسمي ، ١ / ٤٤٣ .

[٥] سورة النجم ، الآيتان / ٣ ، ٤

، وقال قتادة : أي ما ينطق بالقرآن عن هواه ، { إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى }: أي ما هذا الذي ينطق به من القرآن وكل أحواله وأقواله وأفعاله إلا وحي من الله يُوحيه إليه ، ويُوحى صفة لوحي ، تفيد الاستمرار التجددي وتفيد نفي المجاز ، أي هو وحي حقيقة لا لمجرد التسمية ، .. والآية دليل على كون السنة المطهرة وحياً يوحى). [١]

وقال ابن حزم – رحمه الله – في معرض الاستدلال بهذه الآية: (فصحَّ لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله – عز وجل – إلى رسوله – ﷺ – على قسمين..) ثم ذكر القرآن والسنة. [٢]

وقال الآلوسي في معنى هذه الآية : (أي ما الذي ينطق به من ذلك أو القرآن .. إلا وحي من الله – عز وجل – يوحيه سبحانه إليه .. وقيل المراد : ما يصدر نطقه عليه الصلاة والسلام مطلقاً عن هوى ، وهو عائد لما ينطق به مطلقاً أيضاً .. ولا يبعد عندي أن يحمل قوله تعالى { وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى } على العموم) [٣]. وقال الطاهر ابن عاشور نحو هذا المعنى. [٤]

---

[١] فتح البيان في مقاصد القرآن / صديق حسن خان ، ١٥٩/٩

[٢] الإحكام في أصول الأحكام : لأبي محمد على بن حزم ، ١ / ١٠٨

[٣] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : محمود شكري الألوسي، ٧٢/١٥.

[٤] انظر: تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر ابن عاشور ، ٩٤/١٣ .

وقال صاحب التفسير الشامل: (ويستفاد من الآية أن السنة من جملة الوحي الذي أوحى الله به إلى رسوله – صلى الله وعليه وسلم – فهي وحي من الوحي ، وذلك من حيث المضمون والمعنى ، أما النظم والمبنى فهو من كلام الرسول – صلى الله وعليه وسلم – لذلك فإن سنة الرسول – صلى الله وعليه وسلم – على اختلاف أنواعها يجب العمل بها والتزام أحكامها كالقرآن). [١]

٦ – وجاء في عدة مواضع من القرآن الكريم أمر الله بطاعة نبيه واتِّباع أمره ، والتحذير من عصيانه ومخالفة أمره ، ومن ذلك قوله تعالى: { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [٢]، وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ..} [٣]، وقوله تعالى: { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا .. } [٤] .

وقوله تعالى: { .. فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [٥] ، وقوله تعالى: { ..

---

[١] التفسير الشامل للقرآن الكريم : د. أمير عبد العزيز ، ٦ / ٣٢٢٤

[٢] سورة آل عمران ، الآية ١٣٢

[٣] سورة النساء ، من الآية / ٥٩

[٤] سورة النور ، من الآية / ٥٤

[٥] سورة الأعراف ، من الآية / ١٥٨

فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [١] .. وغير ذلك .

وما كان الله تعالى ليأمر بطاعته واتباع أمره ؛ ويحذر من عصيانه ومخالفة أمره ، إلا وأوامره ونواهيه من الوحي الذي أوحى به إليه ﷺ.

قال الآمدي في الإحكام – وهو يحتج ببعض هذه الآيات على أن أفعال النبي – صلى الله وعليه وسلم – من السنة وأنها حجة: (.. أمر بمتابعته ، ومتابعته امتثال القول والإتيان بمثل فعله ، والأمر ظاهر في الوجوب .. وحذر من مخالفة أمره ، والتحذير دليل الوجوب .. وذلك يدل على أن فعله تشريع وواجب الاتباع ، وإلا لما كان تزويجه مُزِيلاً عن المؤمنين الحرج في أزواج أدعيائهم كما في قصة زواجه بزينب بعد أن طلقها زيد بن حارثة). [٢]

وقال ابن القيم – رحمه الله – معلقاً على قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ... } [٣] : (فأمر الله بطاعته وطاعة رسوله ، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا

---

[١] سورة النور ، من الآية / ٦٣

[٢] الإحكام في أصول الأحكام ، علي بن محمد الآمدي ، ١ / ١٤٠ بتصرف

[٣] سورة النساء ، من الآية / ٥٩

أمر وجبت طاعته مطلقاً ، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه).[١]

٧ - بل قد أفرد الله - عز وجل - الأمر بطاعة رسوله - ﷺ - في مواضع ، منها: قوله تعالى: { وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [٢] ، وقوله تعالى: {.. وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }. [٣]

ويبقى بعد ذلك ما يجل عن الحصر من المواضع التي ورد فيها في القرآن الكريم تعليق الإيمان على طاعته ، ومدح من يطيعونه ، وذم من يشاققونه - ﷺ - وبيان أن مهمته بيان الكتاب وتوضيح مجمله ، .. وهذا كله يفيد أن السنة المأثورة عنه في كل هذا وحي من الله تعالى إليه.

ثانياً - أدلة السنة النبوية على أن السنة من الوحي :

لقد تنبأ النبي - ﷺ - بأنه سيأتي من ينكر كون السنة من الوحي ، لذلك جعل يؤكد مكانة السنة ، وأنها من الوحي ، وليست من الهوى ، وأن أحكامها كأحكام القرآن الكريم ؛ فقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجه جميعاً بالسند إلى أبي رافع -رضي الله عنه- أن النبي - ﷺ -

---

[١] إعلام الموقعين عن رب العالمين : محمد بن أبي بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية)، ٤٧/١.

[٢] سورة النور ، الآية ٥٦

[٣] سورة الحشر ، من الآية / ٧

قال: لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته ، يأتيه أمر مما أمرت به ، أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدري ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه". [١]

وعند أبي داود بسنده إلى المقدام بن معد يكرب عن رسول الله – ﷺ – قال: " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته ، يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه .. ". [٢]

وروى ابن ماجه بسنده إلى المقدام – أيضاً – أن رسول الله – ﷺ – قال " يوشك الرجل متكئاً على أريكته ، يحدث بحديث من حديثي ، فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله ". [٣]

---

[١] رواه أبو داود في سننه: كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، ص / ٦٩٩ برقم (٤٦٠٥) ، ورواه الترمذي في سننه: كتاب العلم ، باب مانهي أن يقال عند حديث النبي ﷺ ، ص/٧٥٢ برقم (٢٦٦٣) وقال : (حسن صحيح) ، وابن ماجه في سننه: المقدمة، باب في تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ، ص / ٨ برقم (٣) ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٣ / ١١٨ ، وفي صحيح سنن الترمذي ٣ /٦ ، وفي صحيح سنن ابن ماجه ١ / ٢١ .

[٢] رواه أبو داود : كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، ص / ٦٩٩ برقم (٤٦٠٤) ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١١٧/٣ .

[٣] رواه ابن ماجه في سننه: المقدمة ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ، ص / ٨ برقم (١٣) ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١ / ٢١ ، =

وقد علق الشُّرَّاح على هذه الأحاديث بتعليقات تدل على أنهم فهموا منها الدلالة على أن السنة من الوحي : قال أبو سليمان الخطابي: (فإنه – أي النبي ﷺ – يحذر بذلك مخالفة السنن التي سنها رسول الله – ﷺ – مما ليس له في القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض ، فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن، وتركوا السنن التي قد ضُمِّنت بيان الكتاب فتحيروا وضلوا). (١)

وقال الطيبي : (في تكرير كلمة التنبيه ، توبيخ وتقرير نشأ من غضب عظيم على من ترك السنة والعمل بالحديث ، استغناء بالكتاب ، فكيف بمن رجح الرأي على الحديث). (٢)

وقال السهارنفوري : (قوله: ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه: أي ومثل الكتاب معه ، وهو الحديث ، لأنه الوحي غير المتلو ، والمماثلة في وجوب العمل والاعتقاد بهما ، لأن الحديث إذا سمع من رسول الله – ﷺ – فهو قطعي مثل القرآن). (٣)

=

ورواه الترمذي في سننه: كتاب العلم ، باب ما نهي أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ ، ص / ٧٥٣ برقم (٢٦٦٩) وقال : (حسن غريب من هذا الوجه) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣ / ٦٤ .

(١) معالم السنن شرح سنن أبي داود : للخطابي ، ٤ / ٢٩٨ .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح : للملا على القاري ، ١ / ٤٠١ .

(٣) بذل المجهود في حل سنن أبي داود : خليل أحمد السهارنفوري ، ٩ / ١٢٦ .

وقال في عون المعبود : (أوتيت الكتاب: أي القرآن ، ومثله معه ، أي الوحي الباطن غير المتلو ، أو تأويل الوحي الظاهر وبيانه بتعميم وتخصيص وزيادة ونقص ، أو أحكاماً ومواعظ وأمثالاً تماثل القرآن في وجوب العمل أو في المقدار ، قال البيهقي: هذا الحديث يحتمل وجهين: أحدهما أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أوتي من الظاهر المتلو، والثاني أن معناه أنه أوتي الكتاب وحياً يتلى ، وأوتي مثله من البيان أي أذن له أن يبين ما في الكتاب ، فيعم ويخص ، وأن يزيد عليه فيشرع ما ليس في الكتاب له ذكر ، فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به كالظاهر المتلو من القرآن). [١]

وقال الخطابي أيضاً: (في الحديث دليل على أن لا حاجة بالحديث أن يعرض على الكتاب ، وأنه مهما ثبت عن رسول الله – ﷺ – شيء كان حجة بنفسه ، فأما ما رواه بعضهم أنه قال: إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه ؛ فإنه حديث باطل لا أصل له ، وقد حكى زكريا الساجي عن يحيى بن معين أنه قال: هذا حديث وضعته الزنادقة). [٢]

وقال المباركفوري: (وهذا الحديث دليل من دلائل النبوة وعلامة من علامتها ، فقد وقع ما أخبر ، فإن رجلاً قد خرج من الفنجاب من

---

[١] عون المعبود شرح سنن أبي داود : شمس الحق العظيم آبادي ، ١٢ / ٢٧٧ ، وانظر: معالم السنن: للخطابي ٤/٢٧٦

[٢] معالم السنن : للخطابي ، ٤ / ١٨٦

إقليم الهند ، وسمى نفسه بأهل القرآن ، وشتان بينه وبين أهل القرآن بل هو من أهل الإلحاد، وكان قبل ذلك من الصالحين فأضله الشيطان وأغواه وأبعده عن الصراط المستقيم ، فتفوّه بما لا يتكلم به أهل الإسلام ، فأطال لسانه في رد الأحاديث النبوية بأسرها .. وقال: هذه كلها مكذوبة ومفتريات على الله تعالى ، وإنما يجب العمل على القرآن العظيم فقط ، دون أحاديث النبي - ﷺ - وإن كانت صحيحة متواترة ، ومن عمل على غير القرآن فهو داخل تحت قوله تعالى **{ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ }** (١) وغير ذلك من أقواله الكفرية ، وتبعه على ذلك كثير من الجهال وجعلوه إماماً ، وقد أفتى علماء العصر بكفره وإلحاده وخرجوه عن دائرة الإسلام ، والأمر كما قالوا). (٢)

ومن أدلة السنة على أن السنة من الوحي ، ما رواه أبو داود بسنده إلى العرباض بن سارية - رضي الله عنه - قال: (صلى بنا رسول الله - ﷺ - ذات يوم ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها الأعين ، ووجلت منها القلوب - فقال رجل يا رسول الله : كأنها موعظة مودع ، فقال: "اتقوا الله ، وعليكم بالسمع والطاعة وإنْ عبداً حبشياً ،

(١) سورة المائدة ، من الآية / ٤٤ .

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي : محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ، ٧/ ٤٦٠ ، ٤٦١ وانظر : عون المعبود ١٢ / ٢٧٩ .

وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ..). [١]

(والعض كناية عن شدة ملازمة السنة والتمسك بها ، فإن من أراد أن يأخذ شيئاً أخذاً شديداً يأخذه بأسنانه ..) [٢]، ولا يأمر النبي – ﷺ – بهذا الأخذ الشديد إلا ليؤكد لنا أن السنة من وحي الله – عز وجل – الذي يأمر أنبياءه بأخذ ما يُوحيه إليهم بقوة ومن غير تفريط ، قال ليحيى – عليه السلام: **{ يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ..}** [٣]، وقال لموسى – عليه السلام – في وحي التوراة : **{..فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا .. }**. [٤]

وفي حجة الوداع يجمع النبي – ﷺ – بين الكتاب والسنة في وصية وجهها للأمة – أيضاً – أن يتمسكوا بهما ، فقال: " .. تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما ، كتاب الله وسنة نبيه ". [١]

---

[١] رواه أبو داود في سننه : كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، ص / ٦٩٩ برقم (٤٦٠٧) ، ورواه الترمذي في سننه ، كتاب العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، ص/ ٧٥٥ برقم (٢٦٧٦) وقال : (حسن صحيح) ، ورواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة، باب ما أمر به من اتباع السنة ، ص / ٢٩ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١١٩/٣ ، وفي صحيح سنن الترمذي ٦٩/٣ .

[٢] تحفة الأحوذي : للمباركفوري ٧ / ٤٧٦ .

[٣] سورة مريم ، من الآية / ١٢

[٤] سورة الأعراف ، من الآية / ١٤٥

قال أبو الوليد الباجي : (يريد – والله أعلم – ما سنَّه وشرعه وأنبأنا عن تحليله وتحريمه ، وغير ذلك من سنته ، وهذا فيما فيه كتاب أو سنة ، وما لم يكن فيه كتاب ولا سنة فمردود إليهما ومعتبر بهما). [١]

وقال الزرقاني : (فإنهما الأصلان اللذان لا عدول عنهما ولا هدى إلا منهما، والعصمة والنجاة لمن مسك بهما واعتصم بحبلهما .. فوجوب الرجوع إليهما معلوم من الدين بالضرورة ..). [٢]

وروى الترمذي بسنده إلى ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: سمعت النبي – ﷺ – يقول " نضر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع ، فرب مبَّلغ أوعى من سامع ". [٣]

قال الشافعي – رحمه الله – : (فلما ندب رسول الله – ﷺ – إلى استماع مقالته ، وحفظها ، وأدائها امرأ يؤديها ، والامرؤ واحد ، دل على أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه

---

[١] المنتقى شرح موطأ مالك : أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ، ١٠ / ١٥٤

[٢] شرح الزرقاني على الموطأ ، محمد عبد الباقي الزرقاني ، ٤ / ٣٨٧

[٣] رواه الترمذي في سننه: كتاب العلم ، باب ما جاء في الحث على "تبليغ السماع ، ص/٧٥١ برقم (٢٦٥٩) ، وقال: (حديث صحيح)، ورواه ابن ماجه في سننه: المقدمة، باب من بلغ علماً ، ص / ٥٨ برقم (٢٣١) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٤٥/١ .

،لأنه إنما يؤدِّي عنه حلال ، وحرام يجتنب وحدّ يقام ، ومال يُؤخذ ويعطى ، ونصيحة في دين ودنيا). [١]

وقد روى الشافعي في الرسالة والحاكم في المستدرك قوله – ﷺ –: " إن الروح الأمين قد ألقى في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي في رزقها فأجملوا الطلب " [٢] وفي رواية: " إن روح القدس نفث في روعي .. " [٣] وفي أخرى: " هذا رسول رب العالمين جبريل – عليه السلام – نفث في روعي..". [٤] قال الشافعي: (فكان مما ألقى في روعه سنته ، وهي الحكمة التي ذكر الله). [٥]

هذه بعض الأدلة من السنة على كونها من الوحي الإلهي ، ومن استقصى وقف على أكثر من ذلك ، وفيما ذكرته من الأحاديث وتعليقات العلماء عليها كفاية.

---

[١] الرسالة : محمد بن إدريس الشافعي ، ص / ٤٠٢ ، ٤٠٣.

[٢] رواه الشافعي في الرسالة ، ص/٩٣ ، والحاكم في المستدرك: كتاب البيوع ١٣٨/٢ برقم (٢١٨١) وسكت عنه، وذكر الشيخ شاكر للحديث طرقاً كثيرة في تعليقه على الرسالة .

[٣] رواه البغوي في شرح السنة: كتاب الرقاق ، باب التوكل على الله ٣٠٤/١٤ برقم (٤١١٢) قال عنه شعيب الأرناؤط : (رجاله ثقات وهو مرسل) ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير ٨ / ١٦٦ برقم (٧٦٩٤) من حديث أبي أمامه ، وقال في المجمع ١٢٤/٤ : (فيه عفير بن معدان وهو ضعيف) .

[٤] رواه البزار في مسنده برقم (١٢٥٣) وقال الهيثمي في المجمع ١٢٣/٤: (رواه البزار وفيه زائدة بن قدامه لم أجد من ترجمه ، وبقية رجاله ثقات) .

[٥] الرسالة للشافعي ، ص / ١٠٣ .

ثالثاً - انعقاد الإجماع على كون السنة من الوحي الإلهي :

لقد سبق في الاستدلال بالقرآن وبالأحاديث النبوية على أن السنة من الوحي، ذكر أقوال عدد كبير من العلماء وهم يعّلقون على الآيات والأحاديث ويثبتون أن السنة من الوحي الذي أوْحَاه الله إلى نبيه - ﷺ - وسنذكر هنا مزيداً لأقوال العلماء ، وخاصة الذين يحكمون إجماع واتفاق أهل العلم على ذلك.

قال ابن حزم - رحمه الله -: (.. فصح أن كلام رسول الله - ﷺ - كله في الدين وحي من عند الله - عز وجل - لاشك في ذلك ، ولا خلاف بين أحد من أهل اللغة والشريعة في أن كل وحي نزل من عند الله - تعالى - فهو ذكر منزل). [١]

وقال الشوكاني - رحمه الله - (وقد اتفق من يعتد به من أهل العلم ، على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام ، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال ، وتحريم الحرام) ، ثم استدل على ذلك بحديث : " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه " ، ثم قال: (أي أوتيت القرآن ، وأوتيت مثله من السنة التي لم ينطق بها القرآن). [٢]

---

[١] الإحكام في أصول الأحكام ، على بن أحمد بن حزم ، ١ / ١٣٥

[٢] إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : محمد بن على الشوكاني ، ص / ٣٣

وقال ابن القيم – رحمه الله – (والكتاب هو القرآن ، والحكمة هي السنة باتفاق السلف ، وما أخبر به الرسول – ﷺ – عن الله فهو في وجوب تصديقه ، والإيمان به ، كما أخبر به الرب – سبحانه – على لسان رسول الله – ﷺ – هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم). [١]

ونقل ابن القيم عن الشافعي أنه قال: (أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله – ﷺ – لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس). [٢]

وقال الشافعي – أيضاً: (ولا أعلم من الصحابة ولا من التابعين أحداً أخبر عن رسول الله – ﷺ – إلا قُبِل خبره وانتهى إليه ، وأثبت ذلك سنة .. وصنع ذلك الذين بعد التابعين ، والذين لقيناهم ، كلهم يثبت الأخبار ، ويجعلها سنة ، يُحمد من تبعها ويُعاب من خالفها ، فمن فارق هذا المذهب كان عندنا مفارق سبيل أصحاب رسول الله – ﷺ – وأهل العلم بعدهم إلى اليوم ، وكان من أهل الجهالة). [٣]

وقال ابن حزم – أيضاً : (ولو أن امرءً قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة ، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين

---

[١] الروح : محمد بن أبي بكر بن أيوب (بن القيم) ، ص / ١٠٥

[٢] إعلام الموقعين عن رب العالمين : لأبن القيم ، ٢ / ٢٨٣

[٣] مفاتيح الجنة في الاحتجاج بالسنة : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ص / ٢٠ ، ٢١

دلوك الشمس إلى غسق الليل ، وأخرى عند الفجر ، لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة ولا حدّ للأكثر في ذلك ، وقائل هذا كافر مشرك حلال الدم والمال ، وإنما ذهب إلى هذا بعض غالية الرافضة ممن اجتمعت الأمة على كفرهم). [١]

وقال الشيخ السباعي: (ومن هنا اتفق المسلون قديماً وحديثاً ، إلا من شذ من بعض الطوائف المنحرفة على أن سنة رسول الله - ﷺ - من قول أو عمل أو تقرير هي من مصادر التشريع الإسلامي الذي لا غنى لكل متشرع عن الرجوع إليها في معرفة الحلال والحرام). [٢]

وقال الشيخ عبد الغني عبد الخالق: (انعقد الإجماع على أنه - ﷺ - كان يُوحَى إليه غير القرآن ، وانعقد إجماع المجتهدين من السلف والخلف على حجية السنة ، واتفقت على ذلك كلمتهم وتواطأت أفئدتهم). [٣]

وهكذا ثبت بالأدلة الواضحة من الكتاب والسنة والإجماع أن السنة النبوية من الوحي الإلهي إلى النبي - ﷺ .

---

[١] الإحكام في أصول الأحكام : لابن حزم ، ٢ / ٨٠

[٢] السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : د. مصطفى السباعي ، ص / ٣٧٦

[٣] حجية السنة : د. عبد الغني عبد الخالق ، ص / ٣٣٧

المبحث الثالث

كيفية تلقّي النبي – ﷺ – لوحي السنة المطهرة

أولاً – وقفة مع تلقى النبي – ﷺ – لوحي القرآن :

لقد ناقش العلماء في كتب علوم القرآن وغيرها مسألة كيفية تلقي النبي – ﷺ – لوحي القرآن ، وفي ذلك تفصيل وعدَّة أقوال ، خلاصتها : أن بعضهم يرى أن جبريل كان يسمعه من رب العالمين بصوت وحرف ، وهذا مذهب أهل الحديث ، وذهب البعض إلى أن جبريل لم يسمع صوتاً ولا حرفاً ، وإنما تجلى الله له بنوع من التجلي فسمع جبريل ما أوحى الله به إليه من غير صوت ولا حرف ، وهذا مذهب الأشاعرة ، وقيل: إن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ ، كان يحفظه فينزل به على النبي – ﷺ – فيلقيه إليه. (١)

وقد رجح العلماء القول بأن جبريل كان يتلقفه سماعاً من الله تعالى ، (٢) واستدلوا بما رواه الطبراني من حديث النواس بن سمعان مرفوعاً : " إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماءَ رجفةً شديدة من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجداً ، فيكون أولهم يرفع رأسه

(١) انظر الزيادة والإحسان في علوم القرآن : محمد بن أحمد بن عقيلة المكي ، ١ / ١١٠- ١١٣ ، الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي ١ / ١١٧، ١١٨ ، مناهل العرفان في علوم القرآن : للزرقاني ١ / ٦٤ ، ٦٥

(٢) انظر مناهل العرفان ١ / ٦٥ ، والإتقان ١ / ١٢٦ ، في علوم القرآن : سليمان معرفي ، ص / ٣٠ .

جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فينتهي به على الملائكة ، فكلما مر بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ قال : الحق ، فينتهي به حيث أمر ". [١]

وعند الترمذي من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله- ﷺ-: " إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، حتى إذا جاءهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم، قال: فيقولون: ياجبريل ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون الحق، الحق". [٢]

وقال البيهقي في معنى قوله تعالى **{ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ }** [٣]: (يريد – والله أعلم – إنا أسمعنا الملك وأفهمناه إياه ، وأنزلناه بما سمع). [٤]

واختلفوا أيضاً في الذي كان ينزل به جبريل من وحى القرآن ، هل كان ينزل بالمعنى فقط؟ أم باللفظ والمعنى؟!

---

[١] أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ٢١٣ برقم (١١٢٨٨) وقال : (رواه الطبراني .. ورجاله ثقات وأورده الحافظ ابن حجر في الفتح ٩ / ٤٩٧ عند الحديث رقم (٤٨٠٠) وسكت عنه ، وأصله في الصحيح بغير هذا اللفظ

[٢] رواه الترمذي في سننه: كتاب التفسير، باب ومن سورة سبأ، ص/٨٩٤ برقم (٣٢٣٧) وقال: (حسن صحيح)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/٣١٤ برقم (٣٢٢٣)

[٣] سورة القدر ، الآية /١

[٤] الأسماء والصفات: للبيهقي، ص/٢٢٩ .

وفـى المسـألة ثلاثـة أقـوال : الأول : أن جبريـل إنمـا نـزل بـاللفظ والمعنـى مـن عنـد الله تعـالى ، والثـاني: أنـه نـزل بالمعـاني خاصـة وأن النبـي - ﷺ- علم تلك المعاني وعبَّر عنها بلغة العرب ، والثالث: أن جبريـل أُلقـى إليـه المعنـى مـن عنـد الله تعـالى ، وعبَّـر هـو عنهـا بهـذه الألفاظ بلغة العرب ، فيكون المعنى من عند الله واللفظ من عند جبريل !! [١]

وكـلا القـولين الثـاني والثالـث باطـل أثيم ، مصـادم لصـريح الكتـاب والسـنة والإجمـاع، ولا يسـاوي المـداد الـذي كتـب بـه ، وأغلـب الظـن أنـه مدسـوس علـى المسـلمين فـي كتـبهم ، وإلا فكيـف يكـون القـرآن حينئـذٍ معجزاً واللفظ لمحمد أو لجبريل ؟ ثم كيف تصح نسبته إلى الله واللفظ ليس لله؟ مع أن الله يقول: **{ حَتَّـى يَسْـمَعَ كَـلامَ اللَّـهِ }** [٢]، والحق أنـه لـيس لجبريـل فـي القـرآن سـوى حكايتـه للرسـول - ﷺ- وإيحائـه إليـه ، وليس للرسول- ﷺ- في القرآن سوى وعيه وحفظه ، ثم تبليغه للناس ، فنحن نقرأ في القرآن ما يؤكد ذلك، قال تعالى: **{ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ**

---

[١] انظر: الإتقان ١/١٢٥، والوحي المحمدي: لمحمد رشيد رضا، ص/١٣٧،١٣٨ والبرهان في علوم القرآن: للزركشي ، ١/٢٩١ .

[٢] سورة التوبة ، من الآية / ٦ .

لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } [١] وقال تعالى: **{ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي }** [٢] . [٣]

وحسماً لمادة الخلاف حول ما الذي نزل به جبريل من وحى القرآن ، فقد قسّم العلماء الوحي عموماً إلى قسمين ، قال السيوطي رحمه الله : (قال الجويني : كلام الله المنزل قسمان : قسم قال الله لجبريل: قل للنبي الذي أنت مرسل إليه: إن الله يقول : افعل كذا وكذا ، وأمر بكذا وكذا ، ففهم جبريل ما قاله ربه ، ثم نزل على ذلك النبي وقال له ما قاله ربه ، ولم تكن العبارة تلك العبارة ، كما يقول المَلِكُ لمن يثق به : قل لفلان: يقول لك المَلِكُ لا تتهاون في خدمتي ولا تترك الجند تتفرق ، وحُثَّهم على المقاتلة ، ولا يُنسب إلى كذب ولا تقصير في أداء الرسالة ، وقسمٌ آخر قال الله لجبريل : اقرأ على النبي هذا الكتاب ، فنزل جبريل بكلمة من الله من غير تغيير ، كما يكتب المَلِكُ كتاباً ويسلمه إلى أمين ، ويقول : اقرأه على فلان ، فهو لا يغيِّر منه كلمة ولا حرفاً) [٤] .

---

[١] سورة النمل ، الآية / ٦ .

[٢] سورة الأعراف ، من الآية / ٢٠٣ .

[٣] مناهل العرفان : للزرقاني ٦٦/١ بتصرف ، مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح ، ص / ٣٣ .

[٤] راجعت ما وقع تحت يدي من كتب الجويني فلم أجد هذا النص !

ثم قال السيوطي: (قلت : القرآن هو القسم الثاني ، والقسم الأول هو السنة، كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى ، لأن جبريل أداه بالمعنى ، ولم تجز القراءة بالمعنى ، لأن جبريل أداه باللفظ). [١]

قال الشيخ الزرقاني – رحمه الله : (أقول وهذا كلام نفيس ، بيد أنه لا دليل أمامنا على أن جبريل كان يتصرف في الألفاظ المُوحَاة في غير القرآن ، وما ذكره الجويني فهو احتمال عقلي لا يكفي في هذا الباب). [٢]

قلت: كلام الجويني وإن لم يستدل عليه من جهة النقل إلا أن الواقع العملي في روايتي القرآن والسنة يشهد له ، فالحديث الواحد قد يروى بعدة وجوه ، تختلف في الطول والقصر ، وفي الألفاظ ، وفي ترتيب السياق .. وغير ذلك ، ولو كان أُوحي بلفظه ما تصرف فيه هكذا.

أما كيف تلقى النبي – ﷺ – وحي السنة ؟ فهذا هو السؤال الذي قصدنا بالمقدمات السابقة التمهيد للإجابة عليه.

---

[١] الإتقان ١ / ١٢٦ ، ١٢٧ ، وانظر: الزيادة والإحسان : لابن عقيلة ١ / ١١٥ ، ومناهل العرفان ١ / ٦٧

[٢] مناهل العرفان ١ / ٦٨

<u>ثانياً - الكيفيات التي تلقى بها النبي - ﷺ - وحي السنة</u> :

ولقد بيّن القرآن الكريم أن كيفية الوحي إلى نبينا محمد - ﷺ - كالوحي إلى الأنبياء والرسل السابقين ، قال تعالى: **{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ .. }** [١]، ولقد استشهد البخاري بهذه الآية في كتاب من كتب جامعه الصحيح وهو كتاب بدء الوحي، قال: (باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله - ﷺ - وقول الله عز وجل: **{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ .. }**) [٢]، قال الحافظ ابن حجر: (ومناسبة الآية للترجمة واضح من جهة أن صفة الوحي إلى نبينا محمد - ﷺ - توافق صفة الوحي إلى من تقدَّمه من النبيين). [٣]

ثم فصَّل أن هذا الوحي الذي وقع للرسول على كيفيات ثلاث ، فقال تعالى: **{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ }**. [٤]

فالكيفية الأولى: في قوله تعالى: **{ إِلاَّ وَحْياً ..}** ، وتكون بإلقاء المعنى في القلب أو النفث في الروع ، أو الرؤيا الصادقة ، والكيفية الثانية: في

---

(١) سورة النساء ، من الآية / ١٦٣

(٢) الجامع الصحيح: محمد بن إسماعيل البخاري: كتاب بدء الوحي ، ص / ٥

(٣) فاتح الباري بشرح صحيح البخاري: أحمد بن على بن حجر العسقلاني ، ١ /١٥

(٤) سورة الشورى ، الآية / ٥١

قوله تعالى: **{ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ }** أي أن يكلم الله النبي مباشرة من وراء حجاب ، لكن دون رؤية للذات الإلهية ، والكيفية الثالثة: في قوله تعالى: **{ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ }** وهذا يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام . [١]

وقد أجمع العلماء على أن وحي القرآن كله كان بالكيفية الأخيرة وهو ما يسمى بالوحي الجلي ، لقوله تعالى: **{ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ }**. [٢]

إذن فوحي السنة كان يأتي بالكيفيات الثلاث المذكورة في الآية ، فإلى شيء من تفصيلها.

- **الكيفية الأولى** : وهي التي يتلقى فيها النبي – ﷺ – الوحي عبر إلقاء المعنى في قلبه الكريم من غير توسط ملك الوحي ، وهو عبارة عن إلهام يقذفه الله في قلبه لا يقبل الشك في أنه من عند الله.

وفي هذا يروي ابن مسعود – رضى الله عنه – عن النبي – ﷺ – أنه قال: " إن روح القدس نفث في رُوعي أن نفساً لن تموت حتى

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح ، ص/٢٥ ، مدخل إلى القرآن والحديث : عدنان زرزور ، ص/٧٥ ، وفي علوم القرآن: سليمان معرفي ، ص/٣٣

(٢) انظر المراجع الثلاثة السابقة – المواضع نفسها و سورة الشعراء ، الآيات من ١٩٣ إلى ١٩٥

تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب " [١] ، وفي رواية : " إن جبريل – عليه السلام – ألقى في روعي ... ". [٢]

(والنَّفْثُ: أقل من التفل ، لأن التفل لا يكون إلا معه شيء من الريق ، وقيل: هو التفل بعينه ، قال أبو عبيد: هو كالنفث بالفم ، شبيه بالنفخ ، وفي الحديث: إن روح القدس نفث في روعي : يعني جبريل ، أوحي أو ألقى ..). [٣]

(والرُّوع : بضم الراء ، هو موضع الرَّوع وهو القلب ، وأصل الرَّوع : الفزع ، فأطلق على المحل الذي يحصل له). [٤]

وقال القاضي عياض: (ألقي في رُوعي ، ونفث في رُوعي : بضم الراء أي نفسي، وقيل : خَلَدي ، وهما بمعنى) ، [١] (ومنه المرَّوع :

---

[١] رواه البغوي في شرح السنة : كتاب الرقاق ، باب التوكل على الله عز وجل ، ١٤ / ٣٠٤ برقم (٤١١٢)

[٢] رواه الحاكم في المستدرك: كتاب البيوع ٢ / ١٣٨ برقم (٢١٨١) وسكت عنه هو والذهبي ، ورواه البغوي في شرح السنة : كتاب الرقاق ، باب التوكل على الله عز وجل ٣٠٣/١٤ برقم (٤١١٠) وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط معلقاً عليه: (رجال ثقات ، لكنه مرسل ، وله شاهد من حديث ابن مسعود وسيذكره المصنف بعده وآخر من حديث جابر بنحوه عند الحاكم وصححه ابن حبان وثالث عن أبي أمامة عند أبي نعيم في الحلية ٢٦،٢٧/١٠ فيتقوى الحديث ويصح) حاشية شرح السنة ٣٠٣/١٤

[٣] لسان العرب: لابن منظور ٢٢٣/١٤ بتصرف ، وانظر : تهذيب اللغة : للأزهري ٧٥/١٥، والنهاية في غريب الحديث والأثر ٧٣/٥

[٤] لسان العرب ٣٧١/٥ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر ٢٣٣/٢

بضم الميم وتشديد الواو وفتحها : أي الملهم ، كأن الأمر يُلقى في رُوعه ..).[٢]

وواضح من هذا أن هذه الكيفية هي أكثر كيفيات الوحي خفاءً وسرعة.

- **أما الكيفية الثانية** من كيفيات تلقي النبي – ﷺ – لوحي السنة: فهي أن يتلقى فيها النبي عبر التكليم المباشر، أي يكلمه الله –عز وجل– من وراء حجاب ، فيسمع الكلام ولا يرى المتكلم ، ومنهم من أطلق عليه وحي المشافهة.[٣]

وهذا النوع من الوحي ثابت لموسى – عليه السلام – من قبل نبينا محمد – ﷺ – قال تعالى: **{ .. وَكَلَّمَ اللَّـهُ مُوسَى تَكْلِيماً }**[٤] ، وقال أيضاً: **{ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }**.[٥]

وقد وقع التكليم المباشر لنبينا محمد – ﷺ – في حال اليقظة ، والنوم كذلك ، أما في اليقظة فهي المرة الوحيدة ، وهي التي كلمه رب

=

(١) مشارق الأنوار على صحاح الآثار: عياض بن موسى اليحصبي ، ٣٧٨/١ وانظر : شرح السنة / للبغوي ٣٠٥/١٤

(٢) لسان العرب ٣٧٣/٥ ، وانظر شرح السنة: للبغوي ٣٠٥/١٤

(٣) انظر: الزيادة والإحسان في علوم القرآن : لابن عقيلة المكي ١١٨/١ ، ١١٩

(٤) سورة النساء ، من الآية / ١٦٤

(٥) سورة القصص ، الآية / ٣٠

العـزة فيهـا فـأوحى إليـه بفـرض الصـلاة ، فقـد روى الشـيخان فـي صحيحيهما عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : " .. ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوىً أسمع فيه صريف الأقلام، ففرض الله – عز وجل – على أمتي خمسين صلاة ، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال : ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت: فرض خمسين صلاة ، قال: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك؟ فراجعني فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى ، قلت: وضع شطرها ، فقال: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق، فراجعته فقال : هي خمس وهي خمسون ، لا يبدل القول لدي ، فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك ، فقلت: استحييت من ربي .. ". (١) ، وفي رواية لمسلم: " .. ثم ذهب إلى سدرة المنتهى ، وإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال ، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشَّى تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إليَّ ما أوحى ، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة .. ". (٢)

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه: كتاب الصلاة ، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء ، ص/٦٩ برقم (٣٤٩) ومسلم في صحيحه : كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله – ﷺ وفرض الصلوات ، ص/٩٠ برقم (١٦٣) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه : كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله – ﷺ – وفرض الصلوات ص/٨٨ برقم (٦٢) .

(وصرِيف الأقلام : صوتها عندما تكتب الملائكة بها ما تؤمر به من أقضية الله تعالى ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ .. وسدرة المنتهى : سميت بذلك لأنه ينتهي إليها علم كل ملك مقرب أو نبي مرسل ، أو لأنه ينتهي إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله). [١]

وقد اختلف العلماء في وقوع الرؤية للنبي – ﷺ – مع التكليم على ثلاثة أقوال: فأثبتها قوم وهؤلاء منهم من قال بوقوعها بعين الرأس ومنهم من قال بوقوعها بالفؤاد ، ونفاها آخرون ، وتوقف آخرون ، ورجح النووي وقوعها فقال: (والحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله – ﷺ – رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره .. وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله – ﷺ – هذا مما لا ينبغي التشكك فيه ، ثم إن عائشة لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله – ﷺ – ولو كان معها فيه حديث لذكرته ، وإنما اعتمدت على الاستنباط من الآيات) [٢] ، ورجح أبو العباس القرطبي التوقف ، فقال: (هل وقعت رؤية الله لمحمد – ﷺ – ليلة الإسراء أو لم تقع ؟ ليس في ذلك دليل قاطع ، وغاية المستدل على نفي ذلك أو إثباته التمسك بظواهر متعارضة معرضة للتأويل ، والمسألة ليست من باب العمليات

---

[١] انظر : فتح الباري ٩٠٨/٢ ، وعمدة القاري ٢٤٤/٣ ، والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٣٨٦/٢ ، ٣٨٧ ، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٢٧٦/١– ٢٧٨ .

[٢] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج : للنووي ، ٩/٣ .

فيكتفي فيها بالظنون ، وإنما هي من باب المعتقدات ، ولا مدخل للظنون فيها ، .. واختلفوا أيضاً هل كلَّم محمد – ﷺ – ربه ليلة الإسراء بغير واسطة أم لا ؟ فذهب ابن مسعود وابن عباس وجعفر بن محمد وأبو الحسن الأشعري في طائفة من المتكلمين إلى أنه كلم الله بغير واسطة ، وذهب جماعة إلى نفي ذلك ، والكلام على هذه المسألة كالكلام على مسألة الرؤية سواءً) . [١]

وخلاصة القول أن الوحي بالتكليم المباشر في اليقظة ثابت بنصوص السنة الصحيحة الصريحة السابقة ، ولا أعلم أحداً نازع فيه إلا المعتزلة ومن على شاكلتهم لموقفهم المعروف من الصفات ، وتعسفاتهم في نفي صفة الكلام على وجه الخصوص معروفة مشهورة.

وأما التكليم المباشر في حالة النوم ، فقد ثبت ذلك – أيضاً ، فقد روى أحمد والبيهقي – وغيرهما – عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي – ﷺ – قال: " أتاني ربي – عز وجل – الليلة في أحسن صورة – أحسبه يعني في النوم – فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال: قلت: لا ، قال النبي – ﷺ : فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثدييَّ – أو قال نحري – فعلمت ما في السماوات وما في الأرض ، ثم قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى

---

[١] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم : لأبي العباس القرطبي ، ٣٨٥/١ .

؟ قال : قلت : نعم ، يختصمون في الكفارات والدرجات ... " [١] ، وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عدي بن ثابت ، قال: قال رسول الله – ﷺ : "سألت ربي – مسألة ؛ وددت أني لم أكن سألته ، قلت : أي رب ، اتخذت إبراهيم خليلاً ، وكلمت موسى تكليماً ، فقال : يامحمد ألم أجدك يتيماً فآويتُ ، وضالاً فهديتُ ، وعائلاً فأغنيتُ ، وشرحتُ لك صدرك ، وحططتُ عنك وزرك، ورفعتُ لك ذكرك فلا أُذكر إلا ذكرت معي ". [٢]

قال ابن عقيلة المكي في أنواع الوحي: (الحادي عشر: أن يرى الحق جل شأنه مناماً ، وقد تجلى له وخاطبه وهو في الأرض). [٣]

وقال السيوطي بعد ذكره لهذه الكيفية من كيفيات الوحي : (وليس في القرآن من هذا النوع شيء فيما أعلم ..). [٤]

- **الكيفية الثالثة** : تلقيه لوحي السنة بواسطة أمين الوحي جبريل – عليه السلام – في اليقظة وفي المنام ، وهذا ثابتً بأحاديث ظاهرة ،

---

(١) رواه أحمد في المسند ، ٤٥٨/٣ برقم (٣٤٨٤) من حديث ابن عباس ، وقال الشيخ شاكر: (إسناد صحيح)، ورواه البيهقي في الأسماء والصفات ، باب ما ذكر في الصورة ، ص/٢٩٩ ورواه ابن أبي عاصم في السنة: باب رؤية نبينا محمد – ﷺ – ربه في منامه ، ص/١٨٨ برقم (٤٦٥) وقال الألباني في ظلال الجنة : (إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير سماك بن حرب فهو من رجال مسلم وحده) .

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ، ٥٥٤/٧ برقم (١٩٩٥٠) .

(٣) الزيادة والإحسان في علوم القرآن ، ١٢٦/١

(٤) الإتقان في علوم القرآن ١٢٨/١

وكان يأتيه إما في صورته الملكية ، أو في صورة رجل ، أو يسمع صلصلة لقدومه دون أن يظهر له.

ومن ذلك: ما رواه أحمد بسنده إلى ابن عباس قال: سمعت النبي – ﷺ – يقول: " أتاني جبريل فقال يا محمد: إن الله – عز وجل – لعن الخمر وعاصرها، ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبائعها ومبتاعها ، وساقيها ومستقيها ". [١]

وما رواه ابن أبي عاصم بسنده إلى عوف بن مالك ، قال : كنا مع رسول الله – ﷺ – في بعض أسفاره فقال: " إن جبريل – عليه السلام – أتاني ، وإن ربي خيّرني بين خصلتين : بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة ". [٢]

[١] رواه أحمد في المسند ، ٢٧٧/٣ برقم (٢٨٩٩) من حديث ابن عباس ، وقال الشيخ شاكر (إسناد صحيح)

[٢] رواه ابن أبي عاصم في السنة ، ص/٣٥٥ برقم (٨٢٩) وقال الألباني في ظلال الجنة: (حديث صحيح وإسناده فيه ضعف) ثم أورد له شاهداً بعده بلفظ: (أتاني آت من ربي) وقال: (صحيح على شرط الشيخين)

وعند الترمذي عن عليَ أن رسول الله – ﷺ – قال: " إن جبريل هبط عليه فقال له: خيِّرهم – يعني أصحابك – في أسارى بدر ، القتل أو الفداء ، على أن يقتل منهم قابلً مثلهم ، قالوا: الفداء ويقتل منا " . [١]

وعن أبي داود والترمذي وغيرهما ، عن السائب بن خلاد قال: قال رسول الله – ﷺ : " أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال والتلبية ". [٢]

وروى الطبراني في الأوسط عن زيد بن حارثة أن جبريل نزل على النبي – ﷺ – في أول ما أوحى إليه ، فعلَّمه الوضوء ، فلما فرغ النبي – ﷺ – أخذ بيده فانتضح به فرجه ". [٣]

وعند البخاري عن أنس – رضي الله عنه – قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم النبي – ﷺ – المدينة ، فأتاه ، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل

---

[١] رواه الترمذي: كتاب السير ، باب ما جاء في قتل الأسارى والفداء ، ص/٤٨٤ برقم (١٥٧١) وقال (حسن غريب) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ١٩٤/٢ برقم (١٥٦٧)

[٢] رواه أبو داود في سننه : كتاب المناسك ، باب كيفية التلبية ، ص/٢٨٣ برقم (١٨١٤) والترمذي في سننه : كتاب الحج ، باب ما جاء في رفع الصوت بالتلبية ، ص / ٢٦٨ برقم (٨٢٩) وقال : (حسن صحيح)

[٣] رواه الطبراني في الأوسط ٧٣/٣ برقم (٣٩٠١) من حديث على بن سعيد الرازي ، وأحمد في المسند ٩١/١٦ برقم (٢١٦٦٨) من حديث أسامة بن زيد ، وقال حمزة الزين: (إسناد حسن)

الجنة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله – ﷺ – خبَّرني بهن آنفاً جبريل .. " [١] ثم شرع يذكر الجواب.

وعند الشيخين من حديث أبي هريرة قال: كان النبي – ﷺ – بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل ، فقال : ما الإيمان ؟ ...) وسأله عن الإسلام والإحسان أيضاً ، والنبي يجيبه ، فلما أدبر قال: " هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم ". [٢]

وعند الشيخين – أيضاً – عن أبي مسعود الأنصاري قال: سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: " نزل جبريل فأمَّني ، فصليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه " يحسب بأصابعه خمس صلوات. [٣]

---

[١] رواه البخاري في صحيحه : كتاب الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته ، ص/٥٩٨ برقم (٣٣٢٩)

[٢] رواه البخاري في صحيحه : كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي – ﷺ – ص /١٧ برقم (٥٠) ومسلم في صحيحه : كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ، ص / ٣٢ برقم (٩)

[٣] رواه البخاري في صحيحه : كتاب مواقيت الصلاة ، باب مواقيت الصلاة وفضلها ، ص/٩٧ برقم (٥٢١) ومسلم في صحيحه : كتاب المساجد ، باب أوقات الصلوات الخمس، ص / ٢٤٧ برقم (٦١٠) واللفظ لمسلم

وفي رواية عند البيهقي : (إن جبريل أتى النبي – ﷺ – يعلمه الصلاة فجاء حين زالت الشمس فتقدم جبريل ورسول الله – ﷺ – خلفه ، والناس خلف رسول الله ﷺ ..). [١] وفي رواية : " إن جبريل أمَّني ليعلمكم أن ما بين هذين الوقتين وقت ". [٢]

وعند الشيخين عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال : كنت مع النبي – ﷺ – .. وقال : مكانك ، وتقدم غير بعيد فسمعت صوتاً ، فأردت أن آتيه ، ثم ذكرت قوله مكانك حتى آتيك ، فلما جاء قلت : يا رسول الله : الذي سمعتُ – أو قال: الصوت الذي سمعت – قال: " وهل سمعت ؟ " قلت : نعم ، قال: " أتاني جبريل عليه السلام فقال : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، قلت : وإن فعل كذا وكذا ؟ قال : نعم ". [٣]

---

[١] رواه البيهقي في السنن الكبرى : كتاب الصلاة ، أبواب المواقيت ، ٩٦/٢ برقم (١٧٦٢)

[٢] رواه البيهقي في السنن الكبرى : كتاب الصلاة ، أبواب المواقيت ، ٩٧/٢ برقم (١٧٦٣)

[٣] رواه البخاري في صحيحه : كتاب الاستقراض ، باب أداء الديون ، ص/ ٤١٦ ، ٤١٧ برقم (٢٣٨٨) ، ومسلم في صحيحه : كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ص/٦١ برقم (٩٤)

وعند البخاري عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال: سمعت النبي – ﷺ – يقول : " أتاني الليلة آت من ربي فقال : صلِّ في هذا الوادي المبارك ، وقل: عمرة في حجة ". [١]

وروى البيهقي بسنده إلى أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله – ﷺ – صلى في نعليه ، فصلى الناس في نعالهم ، ثم ألقى نعليه فألقى الناس نعالهم وهم في الصلاة ، فلما قضى صلاته قال: " ما حملكم على إلقاء نعالكم في الصلاة ؟ " قالوا : يا رسول الله رأيناك فعلت ففعلنا ، فقال: " إن جبريل – عليه السلام – أخبرني أن فيها أذى ، فإذا أتى أحدكم المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه أذى فليخلعهما ، وإلا فليصل فيهما ". [٢]

وعند مسلم في صحيحه عن معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – قال: خرج رسول الله – ﷺ – على حلقة من أصحابه ، فقال: " ما أجلسكم " ؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا ، قال: " آلله ما أجلسكم إلا ذاك " قالوا: والله ما أجلسنا

---

[١] رواه البخاري في صحيحه : كتاب الحج ، باب قول النبي – ﷺ – العقيق واد مبارك ، ص/٢٧٠ برقم (١٥٣٤) .

[٢] رواه البيهقي في السنن الكبرى : كتاب الصلاة ، أبواب المواقيت ، ٣٩٢/٣ برقم (٤١١٨) .

إلا ذاك ، قال: " أما إني لم استحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة ". [١]

هذه الأحاديث التي سقتها تدل دلالة واضحة على تلقيه السنة بواسطة الملك ، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً.

ثالثاً – الهيئات المصاحبة لتلقي وحي السنة :

روى البخاري بسنده إلى أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – أن الحارث بن هشام – رضي الله عنه – سأل رسول الله – ﷺ – فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله – ﷺ: " أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليَّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول " قالت عائشة – رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً ". [٢]

وهذا الحديث فيه إجابة عن نوعين من أنواع الوحي والهيئات المصاحبة لنزوله ، وهما: إتيان الملك إلى النبي – ﷺ – في مثل صلصلة الجرس ، دون أن يظهر له الملك ، والصلصلة : هي صوت

---

[١] رواه مسلم في صحيحه : كتاب الذكر والدعاء والتوبة ، ص / ١١٦٦ برقم (٢٧٠١)

[٢] رواه البخاري في صحيحه : كتاب بدء الوحي ، باب بدون ترجمة ، ص / ٥ برقم (٢) ومسلم في صحيحه: كتاب الفضائل ، باب عرق النبي – ﷺ – في البرد وحين يأتيه الوحي ، ص/١٠٢٥ برقم (٢٣٣٣)

وقوع الحديد بعضه على بعض ، ثم أطلق على كل صوت له طنين ، والصلصلة المذكورة من الهيئات المصاحبة لنزول الوحي ، قيل: هي صوت الملك بالوحي ، وقيل: هي صوت أجنحة الملك، قال الخطابي : يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد ، والحكمة في تقدمه أن يقرع سمعه الوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره ، فيلقى الملك إليه ما أُمر به ، فما أن يفرغ الملك من الإلقاء إلى الرسول - ﷺ - حتى يكون قد وعي وفهم وحفظ عنه ما جاء به. (١)

والثانية: أن يتمثل له الملك رجلاً ، أي في صورة رجل ، أحياناً على شكل أحد أصحابه كما ظهر له في صورة دحية الكلبي ، وأحياناً في صورة أعرابي ، وقد وقع له هذا كثيراً ، وقد تكلم العلماء على هيئة الملك عندما يتمثل للنبي - ﷺ - في صورة رجل ؛ بكلام طويل ، ذكره الحافظ ابن حجر ، ثم قال: (والحق أن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً ، بل معناه أنه يظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه ، والظاهر أيضاً أن القدر الزائد - أي من حجم الملك على حجم الرجل - لا يزول ولا يفنى ، بل يخفى على الرائي فقط). (٢)

---

(١) انظر : فتح الباري ١/ ٣٠ ، ٣١ ، عمدة القارئ ١ / ٨٠ ، الإتقان ١/ ١٢٧ ، الزيادة والإحسان في علوم القرآن ١/ ١١٩ .

(٢) فتح الباري ٣١/١ ، وانظر: تحفة الباري : زكريا الأنصاري ١٠/١ .

وأفاد الحديث أن الهيئات المصاحبة لنزول الوحي تدل على أن الوحي كله شديد ولكن بعضه أشد من بعض ، فأشده على الإطلاق ما كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، فقد قال النبي – ﷺ : " وهو أشده علي " ، لأن الفهم من كلام مثل صلصلة الجرس أشكل من الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود ، وسبب ذلك أن الكلام العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به ، ويؤكد ذلك قول ابن عباس: (كان رسول الله – ﷺ – يعالج من التنزيل شدة) [١] ، وقال بعضهم: إنما كان شديداً عليه ليستجمع قلبه فيكون أوعى لما سمع. [٢]

وتصف أيضاً أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – مقدار المعاناة التي كان يعانيها رسول الله – ﷺ – عند نزول الوحي عليه فتقول: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً) ، ومعنى يتفصد مأخوذ من الفَصْد وهو قطع العِرْق لإسالة الدم ، فقد شبهت جبينه بالعِرْق المفصود مبالغة في كثرة العَرَق ، ويضاف إلى هذا قولها (في اليوم الشديد البرد) : ففيه دلالة على كثرة المعاناة والكرب عند نزول الوحي ، لما فيه من مخالفة العادة ، وهي كثرة العرق في شدة البرد ، فإنه يشعر بوجود أمر طارئ

(١) رواه البخاري في صحيحه : كتاب بدء الوحي ، باب بدون ترجمة ص / ٢ برقم (٥) .

(٢) انظر: فتح الباري ١/٣٠ ، ٣١ ، والتوشيح على الجامع الصحيح ، للسيوطي ١/٦٨ .

زائد على الطباع البشرية ، وإنما كان ذلك كذلك ليبلو صبره فيرتاض لاحتمال ما كلفه من أعباء النبوة. [١]

وأخرج مسلم عن عبادة بن الصامت ، قال: (كان نبي الله إذا أُنزل عليه الوحي كرب لذلك ، وتربَّد له وجهه) ، [٢] وفي رواية : (كان إذا نزل عليه الوحي عرفنا ذلك في فيه ، وغمض عينيه ، وتربد وجهه). [٣]

وعند البخاري من حديث زيد بن ثابت قال : (فأُنزل على الرسول - ﷺ - وفخذه على فخذي ، فثقلت حتى خفتُ أن تُرضَّ فخذي ، ثم سرِّى عنه فأنزل الله ..). [٤]

وروى البيهقي بالسند إلى هشام بن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (وإن كان ليُوحَىَ إليه وهو على ناقته فيضرب حزامها من ثقل ما يوحى إليه). [٥]

---

[١] انظر : عمدة القاري ٨٣/١ ، وفتح الباري ٣٢/١ ، وإرشاد الساري ١٠٢/١ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر ٣٧٠/٣ .

[٢] رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب عرق النبي - ﷺ - في البرد ، ص/١٠٢٥ برقم (٢٣٣٤) .

[٣] رواه البغوي في تفسيره ، ١٦٧/٧ .

[٤] رواه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير ، باب { لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر } ، ص / ٨٣٧ برقم (٤٥٩٢) .

[٥] رواه البيهقي في دلائل النبوة ٩٣/٢

وعند أحمد بسنده إلى عبد الله بن عمر قال: سألت النبي - ﷺ - هل تحس بالوحي ؟ فقال: " أسمع صَلا صِلَ ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يُوحَي إليّ إلا ظننتُ أن نفسي تقبض ". [١]

وهذا كله يدل على شدة الوحي عليه عند تلقيه ﷺ ، فهل كانت هذه الشدة خاصة بتلقيه لوحي القرآن فقط أم أن نفس الهيئات كانت تصاحب تلقيه لوحي السنة ؟ .

قال الحافظ ابن حجر : (والظاهر أن لا يختص بالقرآن كما في حديث يعلى بن أمية في قصة لابس الجبة المتضمخ بالطيب في الحج ، فإن فيه أنه : (رآه - ﷺ - حال نزول الوحي عليه وإنه ليغط). [٢]

وأسوق حديث يعلى بتمامه كما رواه البخاري فهو أصل في المسألة التي معنا ، قال البخاري : قال أبو عاصم : أخبرنا ابن جريج ، أخبرني عطاء ، أن صفوان بن يعلى أخبره ، أن يعلى قال لعمر - رضي الله عنه أرِني النبي - ﷺ - حين يوحى إليه ، قال : فبينما النبي - ﷺ - بالجعرانة - ومعه نفر من أصحابه - جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، كيف ترى: رجل أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب ؟ فسكت النبي - ﷺ - ساعة ، فجاءه الوحي ، فأشار عمر - رضي الله عنه - إلى يعلى ، فجاء يعلى - وعلى رسول الله ثوب قد أُظِل به - فأدخل رأسه ، فإذا

---

[١] رواه أحمد في المسند ٢٢٢/٢

[٢] فتح الباري ٣١/١

رسول الله - ﷺ - محمر الوجه وهو يَغِطّ ، ثم سُرِّي عنه فقال: " أين الذي سأل عن العمرة ؟ " فأُتى برجل ، فقال: " اغسل الطيب الذي بك ثلاث مرات ، وانزع عنك الجبة ، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجتك". [١]

(والغَطِيطُ : صوت النفس المتردد من النائم أو المغمي عليه ، وسبب ذلك شدة ثقل الوحي ، وكان سبب إدخال يعلى رأسه عليه في تلك الحال أنه كان يحب لو رآه في حالة نزول الوحي ..). [٢]

والحديثان يدلان دلالة واضحة على أن النبي - ﷺ - كان يعاني من التعب والكرب عند تلقيه لوحي السنة المطهرة مثل ما كان يعاني عند تلقيه لوحي القرآن الكريم.

إلا أنه يمكن القول بأن هذه الشدة كانت مطردة عند تلقيه وحي القرآن الكريم، أما في وحي السنة المطهرة فلم تكن مطردة في كل ما يوحى به إليه ، بل الغالب أن المشقة تكون أقل ، بدليل أنه - ﷺ - كان يبلغ وحي السنة لأصحابه في أكثر الأحيان وهو في حالة طبيعية.

هذا وقد أثير خلاف حول هيئة الملك عند نزوله بالوحي ، وهيئة النبي - ﷺ - عند تلقيه الوحي ، من حيث الملكية والبشرية !

---

[١] رواه البخاري في صحيحه : كتاب الحج ، باب غسل الخلوق ثلاث مرات من الثياب ، ص/٢٧٠ برقم (١٥٣٦) .

[٢] فتح الباري ١٧٣/٤ ، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار ١٦٤/٢ .

قال السيوطي – رحمه الله : (ثم جبريل أداه في الأرض ، وهو يهبط في المكان: وفي التنزيل طريقان: أحدهما : أن النبي – ﷺ – انخلع من صورته البشرية إلى صورة ملكية ، وأخذه من جبريل ، والثاني: أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه ، والأول أصعب الحالين). [١]

(والتحقيق في ذلك أنه – ﷺ – قد غلبت روحانيته على بشريته ، حتى صار روحاً في صورة الأجسام ، فقبل العروج بجسمه الشريف إلى السماء العلى ، فضلاً عن التلقي عن الملك فلا يحتاج أن ينخلع أو ينخلع له لكونه على ما ذكر من لطف القابلية والاستعداد) . [٢]

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله – ﷺ – قال: " إن مما أخاف عليكم بعدي ، ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها " فقال رجل: أو يأتي الخير بشَرّ يا رسول الله ؟ قال: فسكت عنه رسول الله – ﷺ – فقيل له: ما شأنك ؟ تكلِّم رسول الله – ﷺ – ولا يكلمك ؟ قال: ورأينا أنه ينزل عليه ، فأفاق يمسح عنه الرُّحَضَاء ،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١/١٢٤ ، وانظر : البرهان في علوم القرآن ١/٢٢٩ .

(٢) الزيادة والإحسان في علوم القرآن ١/١١٦ بتصرف

وقال: " أين هذا السائل " – وكأنه حمده – فقال: " إنه لا يأتي الخير بالشر .. " الحديث. [١]

وقد أسلفتُ قول الحافظ ابن حجر في أن تمثل الملك في صورة رجل لا يعني أنه استحال رجلاً – انخلع من الملكية إلى البشرية – ويؤيده ما ثبت أنه رأى الملك على حقيقته ، إلا أن هذا وقع له مرتين فقط ، فقد أخرج مسلم عن عائشة مرفوعاً : "لم أره – يعني جبريل – على صورته التي خلق عليها إلا مرتين". [٢]

وبيَّن الإمام أحمد في روايته عن ابن مسعود: أن الأولى كانت عند سؤاله إياه أن يريه صورته التي خلق عليها ، والثانية عند المعراج [٣] ، وللترمذي من طريق مسروق عن عائشة ، قالت: (لم ير محمد جبريل في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة في أجياد). [٤]

---

[١] رواه البخاري في صحيحه : كتاب الرقاق ، باب ما يحذر من زهرة الحياة الدنيا والتنافس فيها ، ص ٩٦٠ برقم (٦٤٢٧) ، ومسلم في صحيحه : كتاب الزكاة ، باب ليس الغني عن كثرة العرض ، ص / ٤٠٦ برقم (١٠٥٢) واللفظ لمسلم

[٢] رواه مسلم في صحيحه : الإيمان ، باب معنى قوله عز وجل : { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى } ص / ٩٥ ، برقم (١٧٧)

[٣] رواه الإمام أحمد في المسند ، ٤٠٧/١ برقم (٣٨٦٢) ، وصححه أحمد شاكر .

[٤] رواه الترمذي في سننه : كتاب التفسير ، باب ومن سورة النجم ، ص/٩٠٩ ، برقم (٣٢٩٠) وسكت عنه الترمذي ، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ، ص/٣٧٩ .

ولعل الحكمة في ظهور الملك على حقيقته في هاتين المرتين: هي إطلاع النبي - ﷺ - على حقيقة من ينقل إليه عن رب العالمين ، وفي ذلك تثبيت لقلبه ، وزيادة في يقينه ، وفي هذا إرساء لأصول الرواية بعد ذلك ، فالراوي لابد أن يعرف عمَّن يروى ، ويتحقق ويتثبت ، وهذا تعليم للأمة.

ثالثاً - اقتداء الأمة بنبيها - ﷺ - في تحمل الرواية :

هذه الكيفيات التي تلقى بها النبي - ﷺ - ؛ صارت سنة متبعة من بعده في تحمل الرواية ، وأضحت الأمة تقتدي بنبيها - ﷺ - وتجعل السماع أعلى طرق تحمل الرواية منزلة.

قال النووي - رحمه الله: (النوع الرابع والعشرون: كيفية سماع الحديث وتحمله وصفة ضبطه ..) ، ثم تكلم عن شروط قبول الرواية ، وأقسام طرق تحمل الحديث ، وذكر أن السماع من لفظ الشيخ هو أرفع الطرق عند الجماهير ،[١] يليه القراءة على الشيخ ، وبعض العلماء يرون القراءة مساوية للسماع ، [٢] وقد ثبت أن النبي - ﷺ - كان يعرض القرآن على جبريل في رمضان ، [٣] واستدل البخاري والحميدي على مساواة القراءة للسماع بحديث ضمام بن ثعلبة لما أتى النبي - ﷺ -

---

[١] انظر: تدريب الراوي بشرح تقريب النواوي : للسيوطي ، ص/٢٨٤ .

[٢] انظر: تدريب الراوي ، ص/٢٨٧ ، وعلوم الحديث : لابن الصلاح ، ص/١٣٧ .

[٣] انظر: صحيح البخاري : كتاب بدء الوحي ، ص/٧ برقم (٦) .

فقال له : إني سائلك فمشدد عليك؟ ثم قال: أسألك بربك ورب من قبلك ؛ آلله أرسلك ؟ .. ثم جعل يسأله عن شرائع الدين ، فلما فرغ قال: آمنت بما جئت به ، وأنا رسول مَنْ ورائي ، فلما رجع إلى قومه اجتمعوا إليه فأبلغهم فأجازوه ، أي قبلوا منه وأسلموا. [١]

فضمام جعل يعرض شرائع الدين على النبي - ﷺ - يستوثق مما بلغه عن الإسلام ، فلما رجع إلى قومه أدى ما تحمله من رواية ، ولذلك ترجم البخاري على هذا الحديث بقوله : (باب القراءة والعرض على المحدث).

ومن أراد أن يزداد يقيناً من أن الأمة تقتدي بنبيها - ﷺ - في تحمل الرواية فليطالع في كتب علوم الحديث ، ليرى الضوابط المشدة التي وضعها العلماء لضبط عملية تحمل الرواية ، فيراهم يتكلمون عن الناحية السلوكية التي ينبغي توفرها في الراوي والسامع ، ويحذرون من الرواية عن غير الأثبات ، ويحرضون من أراد التحمل على الأخذ من أفواه العلماء وأهل الضبط ، ويذكرون أن من حُرِم ذلك وكان أَخْذُه وتعلمه من بطون الكتب ، كان شأنه التحريف ، ولم يفلت من التبديل والتصحيف ، ويتركون الاحتجاج بمن عرف بالتساهل في سماع الحديث ، وكذلك أهل البدع والأهواء ، ومن لا يعرف أحكام الرواية وإن كان مشهوراً بالصلاح والعبادة ، ويُلزمون الراوي عند الأداء بألفاظ من

[١] رواه البخاري في صحيحه : كتاب العلم ، باب ما جاء في العلم ، ص/٢٠ ، برقم (٦٣)

جنس الطريقة التي تحمل بها ، ولهم في ذلك تفريق دقيق جداً ، وينقدون الأسانيد والمتون .. وغير ذلك.

وأعتقد أن كل هذا ما هو إلا امتداد للشدة التي كان يعانيها النبي – ﷺ – عند تلقيه للوحي ، وقد أسلفنا أن الحكمة من تلك الشدة كانت في بعض وجوهها تشير إلى أنه كان يحدث ذلك ليستجمع المتلقي للوحي قلبه ليكون أوعى لما يسمع.

المبحث الرابع

كيفية أداء النبي – ﷺ – لوحي السنة المطهرة

الأداء : مصدر من (أَدَا) ، ويستعمل بعدة معانٍ ، منها: التوصيل ، والبلاغ ، يقال: أدّى الشيء ، أوصله وبلَّغه ، ومنه قول الله تعالى حكاية عن نبيه موسى – عليه السلام – وهو يخاطب قوم فرعون : **{ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ }** [١] ، ومعناه: استمعوا إليّ ، كأنه يقول : أدوا إلي سمعكم أبلغكم رسالة ربكم. [٢]

ومن تشقيقات الفعل (أدا) : الأداة ، وهي الآلة ، والجمع أدوات ، فكأن الأداء أداة لتوصيل الكلام وتبليغه. [٣]

وقد أُمر النبي – ﷺ – بالأداء من قِبَل الله – عز وجل – فقد قال الله – تعالى – له: **{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }**. [٤]

---

[١] سورة الدخان ، الآية / ١٨

[٢] انظر: لسان العرب ، ١٠١/١

[٣] انظر: مختار الصحاح : للرازي ، ص / ١٦

[٤] سورة المائدة ، الآية / ٦٧

وقد وعي النبي - ﷺ - هذا الأمر الإلهي ، وقام يُؤدي ما أنزل الله إليه من الوحي ، على أكمل وجه وأتمه ، وكان لا يدع موطناً يقوم فيه بالأداء إلا أشهد الحاضرين وأشهد الله - عز وجل - أنه بلغ .

ومن الضروري ونحن نؤصل للوحي الإلهي في السنة النبوية أن نبحث عن كيفية أداء النبي - ﷺ - لوحي السنة وسنتناول ذلك فيما يلي:

* **أولاً - تأصيل البخاري في فقه تراجمه لكيفيات أداء النبي- ﷺ - لوحي السنة :**

إن مما يشد انتباه المطالع في صحيح البخاري ما فعله البخاري من الإبداع في ترتيب كتابه ، فقد بدأه بكتاب بدء الوحي ، وروى فيه مجموعة من الأحاديث التي توضح كيف كان يأتي الوحي إلى النبي - ﷺ - وبدأها بحديث: " إنما الأعمال بالنيات .. "، وعلق العلماء على صنيعه هذا بأنه من فقهه ، قال الحافظ ابن حجر : " وقد صدَّر الكتاب بترجمة بدء الوحي ، وبالحديث الدال على مقصوده المشتمل على أن العمل دائر مع النية ، فكأنه يقول: قصدت جمع وحي السنة المتلقي عن خير البرية - ﷺ - على وجه سيظهر حسن عملي فيه من قصدي .. فاكتفي بالتلويح عن التصريح). [١]

---

[١] فتح الباري ١٣/١ ، وانظر : إرشاد الساري : للقسطلاني ٨٤/١

ثم عقد في أوائل الصحيح – أيضاً – كتاباً للعلم ، هذا الكتاب بما اشتمل عليه في تراجم الأبواب والأحاديث ، يجعل من الممكن القول بأن البخاري – رحمه الله – قصد في إشاراته الفقهية فيه أن يؤصِّل للأداء أو البلاغ ، فيكون كتاب بدء الوحي تأصيل لكيفيات التحمل والتلقي ، وكتاب العلم تأصيل لكيفيات الأداء والبلاغ .

وباستعراض كتاب العلم توصلت إلى بعض الكيفيات التي أدى بها النبي – ﷺ – وحي السنة ، وهي كما يلي:

١ – **التوضيح والبيان والإفهام** : فقد كان النبي – ﷺ – يعلم أن السنة وحي ، وأنه مبلغ عن الله رب العالمين، ومن ثم حرص على أن يبلغ الوحي بوضوح لا لبس فيه ، واستعمل في ذلك كافة ما يوصله إلى ذلك ، وقد عقد البخاري لبيان هذه الكيفية بابين ، الأول: باب من رفع صوته بالعلم ، وروى تحته حديث عبد الله بن عمرو قال: تخلف عنا النبي – ﷺ – في سفرة سافرناها فأدركنا وقد أرهقنا الصلاة ونحن نتوضأ ، فجعلنا نمسح على أرجلنا ، فنادى بأعلى صوته : " ويل للأعقاب من النار " مرتين أو ثلاثاً.[1] ، الثاني : باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليُفهم عنه ، وروى تحته حديث أنس وهو يصف كيفية أداء النبي – ﷺ – للوحي ، (قال أنس: عن النبي – ﷺ – أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى

---

(١) رواه البخاري : كتاب العلم ، باب من رفع صوته بالعلم ، ص/١٩ برقم (٦٠) .

تُفهم عنه ، وإذا أتى على قوم فسلَّم عليهم ثلاثاً)[١] ، (وقد بيَّن الغاية من التكرار بقوله: حتى يُفهم عنه ، أي لكي تعقل ، لأنه عليه الصلاة والسلام مأمور بالبلاغ والبيان). [٢]

ومما يدل على التزام النبي – ﷺ – هذه الكيفية في أداء الوحي ، تعبير أنس بقوله : (كان إذا تكلم) ، قال الكرماني : (هذا التركيب يُشعر بالاستمرار عند الأصوليين). [٣]

وقال ابن المنيِّر: (نبه البخاري بهذه الترجمة على الرد على من كره إعادة الحديث ، وأنكر على الطالب الاستعادة وعدّه من البلادة ، قال: والحق أن هذا يختلف باختلاف القرائح، فلا عيب على المستفيد الذي لا يحفظ من مرة إذا استعاد ، ولا عذر للمفيد إذا لم يُعد بل الإعادة عليه آكد من الابتداء ، لأن الشروع ملزم). [٤]

ومن هنا تكلم العلماء عن مجلس المحدث إذا عظم ، وكان كلامه لا يبلغ جميع الحضور ، أو كان يُدغم بعض الحروف فلا يفهم ، أو كان القارئ يفرط في الإسراع ، أو بَعُد بحيث لا يُفهم ، والظاهر أنه يعفى

---

(١) رواه البخاري في صحيحه : كتاب العلم ، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه ، ص/٢٦ برقم (٩٥) .

(٢) إرشاد الساري : للقسطلاني ٣٣٧/١ بتصرف .

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٢٨٣/١ .

(٤) فتح الباري ٢٥٥/١ ، وانظر: عمدة القاري ١٦١/٢ .

عن الشيء اليسير ، كالكلمة أو الكلمتين ، ويستحب للشيخ أن يجيز للسامعين رواية ذلك الكتاب ، وإن كتب لأحدهم كتب: سمعه مني وأجزت له روايته ، وإذا بلَّغ أحد المستملين عن الشيخ أجاز البعض هذه الرواية ومنعها بعضهم ، والأحوط أن يبين حالة الأداء أن سماعه لذلك أو لبعض الألفاظ من المستملي ، كما فعله ابن خزيمة وغيره بأن يقول: (أنا بتبليغ فلان) [١] ، وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن سمرة : سمعت النبي – ﷺ – يقول : " يكون اثنا عشر أميراً " فقال كلمة لم أسمعها ، فسألت أبي ، فقال " كلهم من قريش ". [٢]

قال ابن الصلاح: (ويستحب للمحدث العارف عقد مجلس لإملاء الحديث ... وليتخذ مستملياً يبلغ عنه إذا كثر الجمع ، فذلك دأب أكابر المحدثين المتصدين لمثل ذلك ، وممن روى عنه ذلك : مالك ، وشعبة ، ووكيع ، وأبو عاصم ، ويزيد بن هارون ، في عدد كثير من الأعلام السالفين). [٣]

---

[١] انظر : تدريب الراوي : للسيوطي ، ص/٢٩٦، ٢٩٩ ، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع : للخطيب البغدادي ١/ ٣٠٣ ، ٣٠٤

[٢] رواه البخاري في صحيحه : كتاب الأحكام ، باب الاستخلاف ، ص / ١٣٣٣ ، برقم (٧٢٢٢) ورواه مسلم في صحيحه : كتاب الإمارة ، باب الناس تبع لقريش ، ص / ٨١٧ برقم (١٨٢١)

[٣] علوم الحديث : لابن الصلاح ، ص / ٢٤١

٢- **الاحتراز من وقوع اللبس وعدم الفهم** : وقد عقد البخاري بابين لبيان استخدام النبي - ﷺ - لهذه الكيفية في أدائه لوحي السنة : الأول : (باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه) وروى تحته حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال النبي - ﷺ: " يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم - قال ابن الزبير : بكفر - لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين ، باب يدخل الناس ، وباب يخرجون " [(١)] ، والثاني : باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا ، وروى تحته عن عليٍّ قوله: (حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله). وحديث معاذ لما حدَّثه النبي - ﷺ - بأنه: " ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار " فقال معاذ: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال: " إذاً يتكلوا " فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً. [(٢)]

وليس هذا كتمان للوحي - حاشا رسولنا ﷺ - بل هو ترك للمصلحة لأمن الوقوع في المفسدة ، ولأن الإنسان إذا سمع مالا يفهمه ومالا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه : كتاب العلم ، باب من ترك بعض الاختيار ... ص/٣٢ برقم (١٢٦) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه : كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم ... ص/٣٢ برقم (١٢٨) .

يتصور إمكانه اعتقد استحالته جهلاً فلا يصدق وجوده ، فإذا أسند ذلك إلى الله ورسوله لزم المحذور [١] ، وهو التكذيب.

٣- **حرصه على الإسناد فيما يبلغه من الوحي** : وعقد البخاري لذلك باباً بعنوان: قول المحدث : حدثنا ، أو أخبرنا ، وأنبأنا ، وأورد تحته بعض الآثار المعلقة عن ابن عباس وأنس وأبي هريرة ، كلهم يقول : عن النبي - ﷺ - فيما يرويه عن ربه - عز وجل.

قال الحافظ ابن حجر: (وأراد بذكرها هنا التنبيه على أن حكمها الوصل عند ثبوت اللقى ، وأشار على ما ذكره ابن رشيد إلى أن رواية النبي - ﷺ - إنما هي عن ربه سواء صرح الصحابي بذلك أم لا ، ويدل له حديث ابن عباس المذكور فإنه لم يقل فيه في بعض المواضع : (عن ربه) ولكنه اختصار فيحتاج إلى التقدير ، قلت: ويستفاد من الحكم بصحة ما كان ذلك سبيله صحة الاحتجاج بمراسيل الصحابة ، لأن الواسطة بين النبي - ﷺ - وبين ربه - فيما لم يكلمه به مثل ليلة الإسراء - جبريل ، وهو مقبول قطعاً ، والواسطة بين الصحابي وبين النبي - ﷺ - مقبول اتفاقاً وهو صحابي آخر ...). [٢]

وهناك أحاديث كثيرة جداً صرّح فيها النبي - ﷺ - بالإسناد عند أدائه لوحي السنة ليعلم الأمة إسناد الراوي إلى من يأخذ عنه ، وقد تقدم

---

[١] انظر : فتح الباري ٣٠٤/١ ، وإرشاد الساري ٣٨٨/١ .

[٢] فتح الباري ١٩٦/١ ، وانظر الكفاية في معرفة أصول الرواية ٢/ ٥٠٩ - ٥١٤

ذكر عدد من الأحاديث المصرح فيها بذلك: " أتاني جبريل .. " أو: " أخبرني جبريل آنفاً .. " أو: " أتاني ربي الليلة .. فقال .. ". [١]

وقد تكلم العلماء في الألفاظ المستخدمة في الأداء ؛ مثل: حدثنا وأخبرنا وأنبأنا وقال لنا .. ونحو ذلك هل هي بدرجة واحدة أم بعضها أرفع من بعض فذهب البعض إلى التسوية بينها ، وإلى هذا مال البخاري وابن عيينة وغيرهما ، وذهب البعض إلى التفريق بينهما بحسب كيفية التحمل التي تلقى بها الراوي ، فحدثنا : لما يُسمع من لفظ الشيخ ، وأخبرنا لما يُقرأ عليه ، وأنبأنا للإجازة التي يشافه بها الشيخ من يجيزه ، وفرقوا بين الإفراد والجمع في الضمائر التي تضاف إليها تلك الألفاظ ، .. وكل ذلك مستحسن وليس بواجب عندهم ، وإنما أراد التمييز بين أحوال التحمل ، وظن البعض أن ذلك على سبيل الوجوب فتكلفوا في الاحتجاج له وعليه بما لا طائل تحته ، ويحتاج المتأخرون إلى مراعاة الاصطلاح لئلا يختلط المسموع بالمجاز بعد تقرير الاصطلاح. [٢]

٤- **استعمال الإشارات التوضيحية** : وترجم البخاري لذلك بقوله: باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ، وروى تحته حديث ابن عباس: أن النبي - ﷺ - سئل في حجته فقال: ذبحتُ قبل أن

---

[١] انظر : ص / من هذا البحث

[٢] انظر: فتح الباري ١٩٦/١ ، ١٩٧ ، وإرشاد الساري ٢٧٠/١ ، وتدريب الراوي ، ص/ ٢٨٥

أرمي ، فأومأ بيده قال: " لا حرج " قال: وحلقت قبل أن أذبح ، فأومأ بيده: " ولا حرج "، وحديث أبي هريرة في ذكر بعض أشراط الساعة ، قال: " ... ويكثر الهَرْج " قيل: يا رسول الله وما الهرج ؟ فقال : " هكذا بيده فحرفها " كأنه يريد القتل. (١)

وأداء النبي – ﷺ – لوحي السنة بهذه الكيفية ثابت في أحاديث كثيرة جداً ، في مواقف مختلفة ، فإذا أراد التعبير عن القوة : شبك أصابعه ، كما في الحديث: " المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً " (٢) ، وإذا أراد الملازمة أشار بالسبابة والوسطى ، كقوله: " أنا وكافل اليتيم كهاتين " (٣) ، وإذا أراد التعبير عن القلب أشار إلى الصدر ، يقول : " التقوى هَهنا " (٤) ، وإذا أراد التعبير عن الرضاع مصّ إصبعه كما في الحديث الطويل الذي رواه الشيخان : "ثم أقبل على ثديه فجعل يرضع " قال

---

(١) الحديثان رواهما البخاري في كتاب العلم ، في الباب المشار إليه أعلاه ، ص/٢٤ ، ٢٥ برقمي (٨٤ ، ٨٥)

(٢) رواه البخاري في صحيحه : كتاب المظالم ، باب نصر المظلوم ، ص/٤٢٨ ، برقم (٢٤٤٦)

(٣) رواه البخاري في صحيحه : كتاب الأدب ، باب فضل من يعول يتيماً ، ص/١١٢٤ برقم (٦٠٠٥)

(٤) رواه مسلم في صحيحه : كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم النفس .. ، ص/١١١٥ برقم (٢٥٦٤)

الراوي: (فكأني أنظر إلى رسول الله - ﷺ - وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه فجعل يمصها). [١]

ولا يخفى ما في استعمال الإشارات من أهمية في توضيح المراد وتقريبه لذهن السامع ، ولذلك كان الرواة وهم يؤدون أمثال هذه الأحاديث يحرصون على تلك الهيئات الواردة فيها ، فهو من تمام الأداء للوحي.

ويلحق بالإشارات ما في معناها من هيئات معبرة ، كالتبسم ، والضحك ، والبكاء ، والحزن ، والغضب ، والتهلل فرحاً ، واحمرار الوجه ، والتمعر ، ونحو ذلك ، فهذه كما يطلق عليها خبراء التخاطب لغة الإشارة ، وكلها قد استعملها النبي - ﷺ - في أدائه لوحي السنة ، مما يدل على تفاعله مع ما يُوحى إليه ، وحرصه على التصوير الدقيق للمعاني.

٥- **استعمال الكتابة في أدائه لوحي السنة** : عقد البخاري لبيان استخدام النبي - ﷺ - الكتابة في أدائه لوحي السنة باباً بعنوان: (ما يذكر في المناولة ، وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان) [٢] ، وروى تحته خمسة أحاديث منها ثلاثة معلقة واثنان موصولان ، قال

---

[١] رواه مسلم في صحيحه : كتاب البر والصلة ، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها ، ص/١١١ ، برقم (٢٥٥٠) .

[٢] صحيح البخاري : كتاب العلم ، باب ما ذكر في المناولة .. ص/٢٠ .

الحافظ ابن حجر معلقاً عليها: (لما فرغ من تقرير السماع والعرض أردفه ببقية وجوه التحمل المعتبرة عند الجمهور، فمنها المناولة ، وصورتها أن يعطى الشيخ الطالب الكتاب فيقول له : هذا سماعي من فلان ، أو هذا تصنيفي فاروه عني ، وهي غير عرض المناولة التي يُحضر الطالب فيها الكتاب ، وقد سوَّغ الجمهور الرواية بها ، وردَّها من ردّ عرض الكتاب من باب أولى ..). [١]

فهذه الصورة التي ذكرها الحافظ ابن حجر ، هي كتابة الرواية لحاضر ومناولته إياها، وهي مستفادة من حديث الكتاب الذي كتبه النبي – ﷺ – لقائد السرية ودفعه إليه ، وقد أفادت أحاديث الباب صورة أخرى للكتابة في أداء الوحي وهي الكتابة لغائب ، ويطلق عليها العلماء : (المكاتبة) ، قال الحافظ ابن حجر ، أيضاً: (والمكاتبة : من أقسام التحمل ، وهي أن يكتب الشيخ حديثه بخطه، أو يأذن لمن يثق به بكتبه ، ويرسله بعد تحريره إلى الطالب ، ويأذن له في روايته عنه ، وقد سوى المصنف – أي البخاري – بينها وبين المناولة ، ورجح قوم المناولة عليها لحصول المشافهة فيها بالإذن دون المكاتبة) . [٢]

(وإذا أدى المكاتَب ما تحمله من ذلك فبأي صيغة يؤدي ؟ جوّز قوم .. إطلاق أخبرنا وحدثنا ، والجمهور على اشتراط التقييد بالكتابة فيقول:

---

[١] فتح الباري ٢٠٨/١ ، وانظر : علوم الحديث لابن الصلاح ، ص /٢١٣ .

[٢] فتح الباري ٢٠٨/١ ، وانظر : الكفاية في معرفة أصول الرواية ٣٣٢/٢ – ٣٤٠

حدثنا أو أخبرنا فلان مكاتبة أو كتابة أو نحوهما ، فإن عرت الكتابة عن الإجازة فالمشهور تسويغ الرواية بها). [١]

قلت : ويظهر من هذا أن الكتابة بصورتيها (المناولة والمكاتبة) في حق المكاتَب - بالفتح - تعتبر من صور التحمل ، وفي حق المكاتِب - بالكسر - من أقسام الأداء.

٦- **تفريق الإخبار بوحي السنة بحسب الوقائع والأحداث :** فمعروف أن الأحاديث التي جاءت عن النبي - ﷺ - لم تصدر عنه جملة واحدة - ولا تلقاها كذلك - وإنما تفرقت على حسب الوقائع والأحداث والمواقف ، وجاءت شاملة معالجة لكل ما يصدر عن الإنسان ويحتاج إليه من الهداية والإرشاد ، فمن خلال التتبع لكثير من الكتب التي جُمع فيها وحي السنة المطهرة وُجد أن هذه الأحاديث صدرت عنه - ﷺ - في أحوال مختلفة ، في الأسفار ، وفي الغزوات والمعارك ، وفي الأسواق ، وفي المسجد ، وفي الليل والنهار ، وفي مواقف الرضا والغضب ، والحزن والفرح .. ولم يكن يزحم المجلس بالكلام والتعليمات المتتابعة ، وإنما كان يبلغ بقدر الحاجة ، وفي هذا من الرفق بالأمة ما لا يخفى ، وفي الوقت ذاته فإن هذه الكيفية أدعى لحفظ الناس ما يسمعونه منه - ﷺ - من الوحي ، والعمل به .

---

[١] إرشاد الساري ٢٨١/١ ، وانظر : تدريب الراوي ، ص/٣٢٠ ، ٣٢١

وقد عقد البخاري في كتاب العلم عَّدة أبواب يستفاد منها ذلك ، مثل: باب ما كان النبي – ﷺ – يتخولهم بالموعظة والعلم لكي لا ينفروا ، وباب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة ، وباب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره ، وباب العلم والعظة بالليل ، وباب السمر في العلم ، وباب ذكر العلم والفتيا في المسجد ، وباب من أجاب السائل بأكثر مما سأله .. وغير ذلك. [١]

٧- **التعبير عن وحي السنة بالكلمات الجامعة** : لقد أدّى النبي – ﷺ – وحي السنة بفصاحة هي في الذروة من البيان ، فلقد روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله – ﷺ – قال : " فُضِّلت على الأنبياء بست ، أعطيت جوامع الكلم .. " الحديث ، وفي رواية: " بعثت بجوامع الكلم .. " وفي رواية : "أوتيت جوامع الكلم .. " [٢] ، ونقل النووي والقرطبي عن الهروي أنه قال في معنى جوامع الكلم : (يعني به القرآن ، جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة ، وكلامه – ﷺ – بالجوامع ، قليل اللفظ كثير المعاني). [٣]

---

[١] انظر: الجامع الصحيح : للبخاري : كتاب العلم ، ص/ ٢٢ ، ٢٦، ٣٠ ، ٣٣

[٢] الروايات الثلاث عند مسلم في صحيحه : كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها ، ص/٢١٦ برقم (٥٢٣) .

[٣] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، ٨/٥ ، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٩٣/٢ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢٦٨/١

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي: (فجوامع الكلم التي خُصَّ بها النبي - ﷺ - نوعان: أحدهما: ما هو في القرآن الكريم .. والثاني: ما هو في كلامه - ﷺ - وهو منتشر موجود في السنة المأثورة عن - ﷺ - وقد جمع العلماء - رضي الله عنهم - جموعاً من كلماته - ﷺ - الجامعة ، فصنف الحافظ أبو بكر ابن السني كتاباً سماه الإيجاز وجوامع الكلم من السنن المأثورة ، وجمع القاضي أبو عبد الله القضاعي من جوامع الكلم الوجيزة كتاباً سماه : الشهاب في الحكم والآداب ، وصنف على منواله قوم آخرون ..). (١)

وما أجود ما قال الجاحظ في ما أداه النبي - ﷺ - من وحي السنة ، قال: (هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه ، وكثرت معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف .. واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب والوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشُيَّد بالتأييد ، ويُسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام.. لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبُذ الخطب الطوال بالكَلِم القِصار .. ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب

(١) جامع العلوم والحكم : لابن رجب الحنبلي ، ص / ٨ ، ٩ .

الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة .. ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين فحوى ، من كلامه - ﷺ). (١)

وقد روى البخاري عن عائشة أنها قالت: (إن رسول الله - ﷺ - لم يكن يسرد الحديث كسردكم) وقالت: (إن النبي - ﷺ - كان يحدث حديثاً لو عدّه العاد لأحصاه) (٢) ، وهذا يدل على حرصه على التعبير بالكلمات الجامعة ، فهي قليلة العدد.

ثانياً - ما الذي أداه النبي - ﷺ - في وحي السنة؟ وما حكم رواية المعنى؟

سبق القول - عند كيفية تلقى النبي - ﷺ - لوحي السنة - أنه تلقى المعنى، وتُرِك له اختيار اللفظ للتعبير عن ذلك النوع من الوحي ، وهذا القول وإن كان يعوزه الدليل النقلي ، إلا أن الواقع العملي للرواية يشهد له كما قلنا. (٣)

---

(١) البيان والتبيين : للجاحظ ، ١٧/٢ .

(٢) الحديثان رواهما البخاري في صحيحه : كتاب المناقب ، باب صفة النبي - ﷺ - ص/٦٤٦ برقمي (٣٥٦٧ ، ٣٥٦٨) .

(٣) انظر : ص/ من هذا البحث

وأعتقد أن خلاف العلماء حول رواية الحديث بالمعنى مردُّه إلى اختلاف رؤيتهم في أداء النبي - ﷺ - لوحي السنة ، هل كان باللفظ أم بالمعنى؟

ولتحقيق هذه المسألة أقول: افترق العلماء في رواية الحديث بالمعنى على قولين:

- **الأول** : قال بعض أهل العلم يجب تأدية حديث رسول الله - ﷺ - على لفظه ، وهؤلاء لا يفرقون بين عارف بمعاني الألفاظ وغير عارف ، وهو مذهب كثير من السلف ، وأهل التحري في الحديث ، وهو مذهب الإمام مالك، ومعظم المحدثين ، ومذهب الظاهرية - أيضاً. [١]

وقد تتبع الخطيب البغدادي أقوال هذا الفريق في الكفاية في عدَّة أبواب ، أذكر عناوينها مكتفياً بها في بيان رأي أصحاب هذا القول.

١- (باب ما جاء في رواية الحديث على اللفظ ، ومن رأى ذلك واجباً).

٢- (باب ذكر الرواية عمن لم يُجز إبدال كلمة بكلمة).

٣- (باب ذكر الرواية عمن لم يجز تقديم كلمة على كلمة).

[١] انظر: إرشاد الفحول : للشوكاني ، ص/٥٠ .

٤- (باب ذكر الرواية عمن لم يجز زيادة حرف واحد ولا حذفه ، وإن كان لا يغير المعنى).

٥- (باب ذكر الرواية عمن لم يجز إبدال حرف بحرف ، وإن كانت صورتهما واحدة).

٦- (باب ذكر الرواية عمن لم يجز تقديم حرف على حرف).

٧- (باب ذكر الرواية عمن كان لا يرى تخفيف حرف ثقيل ، ولا تثقيل حرف خفيف وإن كان المعنى فيهما واحداً). [١]

٨- (باب ذكر الرواية عمن كان لا يرى رفع حرف منصوب ، ولانصب حرف مرفوع أو مجرور وإن كان معناها سواء). [٢]

٩- (باب ذكر الحكاية عمن قال: يجب أداء حديث رسول الله - ﷺ - على لفظه ، ويجوز رواية غيره على المعنى). [٣]

وتحت هذه الأبواب عدد كبير من الروايات التي استدل بها هذا الفريق على مذهبه في وجوب الرواية باللفظ ، في أداء وحي السنة ، ومن أبرز تلك الأدلة:

---

[١] الكفاية في معرفة أصول الرواية ، ٥٠٣/١ – ٥٣٧ .

[٢] الكفاية ٥٣٨/١ .

[٣] السابق ٥٥٨/١ .

أمره ﷺ الصحابة بالحفظ ، كما في حديث وفد عبد القيس بعد أن شرح لهم بعض خصال الإيمان ، قال في آخره : " ... احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم " (١) وحديث: " نضر الله امرءً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع فرب مبلَّغ أوعى من سامع ". (٢)

وكذلك رده ﷺ بعض الصحابة إلى ألفاظ معينة أداها فأخطأ فيها الصحابي ، وكان المعنى واحداً ، كما في حديث البراء بن عازب : " إذا أويت إلى فراشك فقل: ... " إلى أن قال: " آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلت " قال البراء : فقلت كما علمني ، غير أني قلت: ورسولك فقال بيده في صدري: "وبنبيك" . (٣)

وكذلك ما جاء من حرص الصحابة على أداء اللفظ ، كما في حديث ابن عمر لما كان يحدِّث بحديث: " بني الإسلام على خمس " وكان الذي يحفظه ابن عمر أن يختم الحديث بصوم رمضان ، فقدَّم رجل

---

(١) رواه البخاري : كتاب الإيمان ، باب أداء الخمس من الإيمان ، ص/١٨ برقم (٥٣) .

(٢) رواه الترمذي في سننه : كتاب العلم ، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ، ص/٧٥١ ، برقم (٢٦٦٢) ، وقال: (حسن صحيح) ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٦١/٣ برقم (٢٦٥٧) .

(٣) رواه البخاري : كتاب الدعوات ، باب ما يقول إذا نام ، ص/١١٧٦ برقم (٦٣١٣) ، والكفاية ٥١٥/١ ، ومسلم : كتاب الذكر والدعاء ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، ص/١١٧٠ ، برقم (٢٧١٠) .

صوم رمضان وأخر الحج في الرواية ، فقال ابن عمر: (لا ، اجعل صيام رمضان آخرهن كما سمعت من رسول الله - ﷺ). [١]

وجاء عن أبي جعفر محمد بن علي ، قال: (لم يكن من أصحاب رسول الله - ﷺ - أحد إذا سمع من رسول الله - ﷺ - لا يزيد فيه ولا ينقص منه ولم يجاوزه ولم يقصر عنه). [٢]

ولا ينكر عاقل حفظ الصحابة - رضي الله عنهم - حديث النبي - ﷺ - لما تميزوا به من ذاكرة قوية ، وصفاء أذهان ، وحرص على التطبيق ونشر الدين من جهة ، ولما تميز به النبي - ﷺ - من شمائل في توجيه للحديث من جهة ثانية ، حيث لم يكن يسرد سرداً متتابعاً ، ولم يكن يطيل الحديث ، وكان يعيده ليحفظ عنه ، ثم إن الله تعالى قد آتاه - ﷺ - قوة البيان وجوامع الكلم. [٣]

- **القول الثاني** : وهو قول جمهور الفقهاء والمحدثين : أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب، ومعاني الألفاظ ، وما يقوم منها مقام الآخر ، رواية الحديث على المعنى ، وليس بين أهل العلم خلاف في أن ذلك لا

---

[١] رواه البخاري : كتاب الإيمان ، باب دعاؤكم إيمانكم ، ص/٩ برقم (٨) ، ومسلم : كتاب الإيمان ، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام ، ص/٣٥ برقم (١٦) والخطيب في الكفاية ١/٥١٦ .

[٢] الكفاية : للبغدادي ، ١/٥٠٣

[٣] انظر: منهج النقد في علوم الحديث : د. نور الدين عتر ، ص/٣٧-٥٠

يجوز للجاهل بمعنى الكلام ومواقع الخطاب ، والمحتمل منه وغير المحتمل. [١]

- **القول الثالث** : قال قوم من أهل العلم: يجب على المحدث رواية الحديث على اللفظ إذا كان معناه غامضاً محتملاً ، فأما إذا لم يكن كذلك ، بل كان معناه ظاهراً معلوماً ، وللراوي لفظ ينوب مناب لفظ النبي – ﷺ – جاز للراوي روايته على المعنى ، وذلك نحو أن يُبدِل قوله: قام بنهض ، وقال بتكلم .. ونحو ذلك. [٢]

ومن أبرز حجج القائلين بجواز رواية الحديث بالمعنى للعارف بمعاني الألفاظ، وبما يحيلها ، قال الحافظ ابن حجر: (ومن أقوى حججهم: الإجماع على جواز شرح الشريعة للعجم بلسانهم للعارف به ، فإذا جاز الإبدال بلغة أخرى فجوازه بالعربية أولى) [٣] ، وقال الآمدي: (وأيضاً فإن النبي – ﷺ – كان مقرراً لآحاد رسله إلى البلاد في إبلاغ أوامره ونواهيه بلغة المبعوث إليهم دون لفظ النبي – ﷺ – وهو دليل الجواز). [٤]

---

[١] انظر: الكفاية ، ٥٧٧/١ ، وتدريب الراوي ، ص/٣٥٢

[٢] انظر: المرجعين السابقين – الموضع نفسه

[٣] نزهة النظر شرح نخبة الفكر: لابن حجر، ص/٩٤، وانظر: المستصفى: للغزالي ٤٩٥/١

[٤] الإحكام في أصول الأحكام : للآمدي ، ٢٨٥/١ ، وانظر : المستصفى ٤٩٥/١.

ولو كان أداء الحديث بألفاظه هو المطلوب دون معناه لأمر رسول الله – ﷺ – أصحابه – رضي الله عنهم – أن يكتبوه كما كتبوا القرآن الكريم ، حتى لا يقع في الأداء زيادة ولا نقصان ولا تقديم ولا تأخير ، وسائر الأخبار تشهد بأنهم كانوا يؤدونها حفظاً وبعضهم كتابة ، ويقدمون ويؤخرون ، وتختلف ألفاظ الرواية فيما لا يتغير معناه فلا ينكر ذلك منهم ، ولا يرون بذلك بأساً. (١)

وقد جاء رجل من التابعين إلى أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – فقال: إنك تحدثنا عن رسول الله – ﷺ – حديثاً عجيباً ، وإنا نخاف أن نزيد فيه أو ننقص ، قال: أردتم أن تجعلوه قرآنا ، لا ، لا ، ولكن خذوا عنا كما أخذنا عن رسول الله – ﷺ. (٢)

وليس هذا هو عمل أبي سعيد الخدري وحده ، بل عليه عمل سائر الصحابة ، ويدل على ذلك روايتهم للقصة الواحدة بألفاظ مختلفة من غير إنكار من أحد منهم، فكان إجماعاً تقوم به الحجة. (٣)

قال ابن سيرين : (كنت أسمع الحديث من عشرة ، اللفظ مختلف والمعنى واحد). (١)

---

(١) انظر: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام : د. عماد الشربيني ، ٣٧٧/١ ، والاجتهاد في علم الحديث وأثره في الفقه الإسلامي: د. علي نايف البقاعي ، ص/٥٤١ .

(٢) أخرجه ابن عبد البر ، في جامع بيان العلم وفضله ٦٤/١ .

(٣) انظر: علوم الحديث : لابن الصلاح ، ص/٢١٥ ، وتدريب الراوي : للسيوطي ، ص/٣٥٤ .

وقال الشيخ عبد الرحمن المعلمي : (هذا أمر يقيني لا ريب فيه ، وعلى ذلك جرى عملهم في حياة النبي - ﷺ - وبعد وفاته ، من بقي منهم حافظاً للفظ على وجهة أداه كذلك ، ومن بقي ضابطاً للمعنى ولم يبق ضابطاً للفظ أداه بالمعنى ، من غير نكير منهم). [٢]

وكذلك قال الشيخ محمد محمد أبو زهو : (فدل ذلك على أن المقصود منها - أي السنة - المعنى دون اللفظ ، ولذلك لم يتعبد بتلاوتها ، ولم يقع التحدي بنظمها وتجوز روايتها بالمعنى). [٣]

وقد أطال الخطيب البغدادي في ذكر الروايات الواردة عن الذين قالوا بجواز رواية المعنى. [٤]

هذا وقد فصل الشيخ طاهر الجزائري في توجيه النظر إلى أصول الأثر قول القائلين بجواز رواية الحديث بالمعنى على نحو ثمانية أقوال كما يلي: [٥]

=

(١) رواه الترمذي في سننه : كتاب العلل ، ص/١٠٧٥ ، والكفاية : للبغدادي ، ٢/١٥ .

(٢) الأضواء الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة : عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، ص/٧٨ بتصرف .

(٣) الحديث والمحدثون : محمد محمد أبو زهو ، ص/٢٠٠ ، وانظر : المستصفى ١/٤٩٥.

(٤) انظر: الكفاية ٢/ ٧-٢٦ .

(٥) انظر: توجيه النظر في أصول الأثر : طاهر الجزائري ، ص/٣٠٦ ، والاجتهاد في علم الحديث وأثره في الفقه الإسلامي : د. على نايف البقاعي ، ص/٥٤٠

١- قول من أجاز الرواية بالمعنى للصحابة فقط.

٢- قول من أجاز الرواية بالمعنى للصحابة والتابعين.

٣- قول من فرَّق بين الألفاظ التي لا مجال للتأويل فيها وبين الألفاظ التي للتأويل فيها مجال ، فأجاز الرواية بالمعنى في الأولى دون الثانية .

٤- قول من فرَّق بين الأوامر والنواهي وبين غيرها ، فأجاز الرواية بالمعنى في الأولى دون الثانية.

٥- قول من فرَّق بين من يستحضر لفظ الحديث وبين من لا يستحضر لفظه بل نسيه ، وإنما بقي في ذهنه معناه ، فأجاز الرواية بالمعنى للثاني دون الأول.

٦- قول من أجاز الرواية بالمعنى بشرط أن يقتصر على إبدال ألفاظ بمفردها دون التركيب.

٧- قول من فرَّق بين من يورد الحديث على قصد الاحتجاج أو الفتيا ، وبين من يورده لقصد الرواية ، فأجاز الرواية بالمعنى للأول دون الثاني.

٨- قول من قال : تجوز الرواية بالمعنى إن كان موجَب الحديث علماً ، فإن كان موجَبه عملاً لم تجز في بعض ، وتجوز في بعض.

ونبه ابن الصلاح بعد ترجيحه الرواية بالمعنى للعارف على أمرين: [١]

- **الأول** : أنه ينبغي لمن روى حديثاً بالمعنى أن يتبعه بأن يقول: (أو كما قال ، أو نحو هذا) أو ما أشبه ذلك من الألفاظ ، وأن الصحابة كانوا يفعلون ذلك وهم أرباب الفصاحة ، وأعلم الخلق بمعاني الكلام ، ولم يكونوا يقولون ذلك إلا تخوفاً من الزلل لمعرفتهم بما في الرواية على المعنى من الخطر .
- **الثاني** : أن الخلاف في الرواية بالمعنى يجري في غير الكتب المصنفة ، فليس لأحد أن يغير لفظ شيء من كتاب مصنف ، ويثبت بدله فيه لفظاً آخر بمعناه ، فإن الرواية بالمعنى رخص فيها من رخص لما كان عليهم في ضبط الألفاظ والجمود عليها من الحرج والنصب ، وذلك غير موجود فيما اشتملت عليه بطون الأوراق والكتب ، ولأنه إن ملك تغيير اللفظ فليس يملك تغيير تصنيف غيره.

ونستنتج مما سبق أن من قال بوجوب أداء وحي السنة على اللفظ كان يرى أن النبي - ﷺ - قد تلقى لفظاً ومعنى ، وأدى كذلك ، ومن

---

[١] انظر : علوم الحديث : لابن الصلاح ، ص/٢١٤ ، ٢١٥

قال بجواز الأداء على المعنى ، يرى أنه تلقى المعنى ، وعّبر بالألفاظ من عنده ، وأداه على المعنى.

ولاشك أن كل رؤية منهما تحقق مصلحة لوحي السنة ، فالقول بوجوب الأداء على اللفظ يظهر أثره في التدقيق في وحي السنة والانتباه لما يؤدي ، وذب محاولات الكذب ، ورد شُبه الطاعنين ، والقول الثاني الذي يرى جواز الرواية على المعنى يظهر أثره في رفع الحرج عن الرواة الصادقين ، مما يسهم في نشر الرواية وتبليغ وحي السنة في إطار واسع.

المبحث الخامس

وحي السنة بين التوقيف والاجتهاد

التوقيف : مصدر من الفعل(وقف) ، والوقوف ضد الجلوس ، والمراد به : الوقوف عند ما نص الشارع عليه من الأحكام الشرعية ، والاجتهاد: مصدر من الفعل (اجتهد) ، والمراد به: بذل الوسع والجهد في استنباط الأحكام الشرعية .

وفي هذا المبحث نريد التوصل إلى معرفة قضية مهمة تتعلق بالوحي الإلهي في السنة النبوية ، وهي: هل كل السنة النبوية وحي من عند الله ؟ أم أن البعض منها صدر عن النبي – ﷺ – باجتهاد منه ؟ وهل يجوز الاجتهاد في حقه أم لا ؟ وإذا اجتهد هل يعتبر اجتهاده وحياً ؟

أولاً – أقسام وحي السنة من حيث التوقيف والاجتهاد :

ذهب العلماء إلى أن وحي السنة من حيث التوقيف والاجتهاد ينقسم إلى قسمين :

– **الأول : قسم توقيفي** : وهو الذي تلقى الرسول – ﷺ – مضمونه من الوحي، فبيّنه للناس بكلامه ، وهذا القسم وإن كان مضمونه منسوباً إلى الله فإنه من حيث هو كلام حريّ بأن يُنسب إلى الرسول – ﷺ

- لأن الكلام يُنسب إلى قائله وإن كان المعنى قد تلقاه من غيره ، وهذا القسم هو الأغلب في السنة النبوية. [١]

- **الثاني : قسم توفيقي** : وهو الذي استنبطه النبي - ﷺ - من فهمه للقرآن ، لأنه مبيِّن له ، واستنبطه بالتأمل والاجتهاد ، وهذا القسم الاستنباطي الاجتهادي يقره الوحي إذا كان صواباً ، وإذا وقع فيه مجانبة للصواب - أو خلاف الأَوْلى - نزل الوحي بما فيه الصواب والأَوْلى ، وهذا القسم هو الأقل في السنة النبوية ، ويدخل في هذا القسم ما صدر من رسول الله - ﷺ - على سبيل العادة والطبيعة وأقره الله عليه ، كشؤونه في طعامه وشرابه ولباسه ، وجلوسه ونومه ، وما شابه ذلك ، فإن ذلك كله بعد تقرير الله - عز وجل - له ، يكون بمنزلة الوحي حجة على العباد ، ما لم يقم دليل على خصوصيته بالنبي - ﷺ - [٢] .

وتبين من ذلك أن الأحاديث النبوية بقسميها التوقيفي والتوفيقي الاجتهادي الذي أقره الوحي يمكن أن يقال: إن مردها جميعاً إلى الوحي

[١] انظر: علوم القرآن والحديث : د. أحمد محمد على ، ص/٢١ ، وتيسير اللطيف الخبير في علوم حديث البشير النذير ، د. مروان شاهين ، ص/٥٤ .

[٢] انظر: حجية السنة : د. عبد الغني عبد الخالق ، ص/٣٤٠ ، وعلوم القرآن والحديث ، د.أحمد محمد على ، ص/٢٢ ، وتيسير اللطيف الخبير: د. مروان شاهين ، ص/٥٤

، وهذا معنى قوله تعالى في رسولنا -ﷺ- : **{وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى}**. (١)

ثانياً - اجتهاد الرسول - ﷺ - وما أثير حوله لإخراجه من جملة الوحي :

اتفق العلماء على أنه يجوز له - ﷺ - الاجتهاد في الأقضية والمصالح الدنيوية وتدابير الحروب ونحوها. (٢)

واختلفوا في اجتهاده في الأحكام الشرعية والقضايا الدينية فيما لا نص فيه على عدّة أقوال :

١- فمنهم من قال لا يجوز له الاجتهاد ، واعتبر ما ورد من ذلك صورة اجتهاد، وليس اجتهاداً في الواقع والحقيقة ، لأن الله معه - ﷺ - وهو مع الله ، ولأنه في جل أوقاته يناجي من لا نناجي ، وإلهامه وحي ورؤيا منامه وحي ، ورب العزة يقول: **{ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى }** ، ويفسرون ما ظاهره الخطأ في الرأي والرجوع إلى قول الغير بأن ذلك اجتهاد في الظاهر لتدريب الأمة على البحث والتفكير والاجتهاد في الأسباب والأخذ بالمشورة ، وحقيقته أن الله يوحي إليه أنْ قل كذا ، وسيقول لك فلان كذا ، فقل

---

(١) سورة النجم ، الآيتان / ٣ ، ٤ .

(٢) انظر: أصول الفقه الإسلامي : د. وهبة الزحيلي ، ٣٤٤/٢ ، وإرشاد الفحول : للشوكاني ص/٢٢٥ ، وشرح الإسنوي ٢٣٧/٣ .

له كذا ، وهذا القول منسوب إلى جمهور الأشاعرة والمتكلمين وأكثر المعتزلة ، ولهم أدلة على ما ذهبوا إليه من الكتاب والمعقول. [١]

أما الكتاب فقوله تعالى: **{ .. قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ .. }** [٢] بالإضافة إلى الآيتين المشار إليهما من سورة النجم ، قالوا: فإن هذا يدل على أن الأحكام الصادرة عنه – ﷺ – كانت بالوحي لا بالاجتهاد ، إذ لو كان بعض ما نطق به عن اجتهاد منه لكان خبره تعالى كاذباً، والكذب في خبره تعالى محال.

ويجاب عنه بأن ظاهر الاستدلال بهذه الآيات صيانة التشريع من الطعن ، والحقيقة أنه شطط في التصون والتحرز ، وتخريج لنصوص القرآن على غير ما يقتضيه البيان ، فليس بلازم من القول باجتهاده – ﷺ – أن يكون اجتهاده من قبيل الهوى ، وإنما هو وحي من عند الله ، فإن الوحي هو الذي طالبه بالاجتهاد والعمل به.

وأما المعقول : فقد ذكروا وجوهاً عديدة أهمها : أن الاجتهاد لا يفيد سوى الظن ، والنبي – ﷺ – كان قادراً على تلقي الوحي الذي يفيد اليقين ، والقادر على اليقين لا يجوز له المصير إلى الظن ، ولو كان

---

(١) انظر : المستصفى : للغزالي ٥٢٩/٢ ، ٥٣٠ ، وفواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت : عبد العلي محمد الهندي ، ٦٠٣/٢ ، والإحكام في أصول الأحكام : على بن محمد الآمدي، ٣٢٥/٢ ، ٣٢٦ ، وأصول الفقه الإسلامي : للزحيلي ٣٤٥/٢ .

(٢) سورة يونس ، من الآية / ١٥ .

متعبداً بالاجتهاد لأظهره ، ولما توقف على الوحي فيما كان يتوقف فيه ، لما فيه من ترك الواجب عليه من الاجتهاد ، واللازم ممتنع ، والاجتهاد عرضة للخطأ فوجب صيانة النبي - ﷺ - عنه ، والاجتهاد مشروط بعدم النص ، وهذا غير متحقق في حقه - ﷺ - لأن الوحي متوقع في حقه في كل حالة ، ولو جاز له - ﷺ - الاجتهاد لجاز أن يرسل الله رسولاً ، ويجعل له أن يشرع شريعة برأيه – وذلك ممتنع ، والأمور الشرعية مبنية على المصالح التي لا علم للخلق بها ، فلو قيل له - ﷺ - احكم بما ترى ، كان ذلك تفويضاً إلى من لا علم له بالأصلح ، وذلك يوجب اختلال المصالح الدينية والأحكام الشرعية .

وقد أجاب جمهور العلماء عن ذلك كله بأجوبة مطَّولة تطلب من كتب الأصول. (١)

وذهب جمهور المحققين وأكثر الأصوليين من العلماء إلى أنه يجوز له - ﷺ - أن يجتهد ، وأنه اجتهد فعلاً ، وأن اجتهاده في بعض الأحيان القليلة كان خلاف حكم الله ، فجاء الوحي بتصحيح الحكم والإرشاد إلى الصواب ، ولهم أدلة على ما ذهبوا إليه ، أهمها:

قوله تعالى: { .. **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ** } (١) ، قالوا: والاعتبار هو القياس والاجتهاد ، وقد أمر الله به أولي البصائر ، والنبي

---

(١) انظر: الإحكام : للآمدي ٢/٣٢٦ ، ٣٢٧ ، وشرح الإسنوي٣ / ٢٣٩ ، وفواتح الرحموت ٢/٦٠٢ .

– ﷺ – أجلُّهم في ذلك ، فهو أعظم الناس بصيرة ، وأكثرهم خبرة بالقياس وشروطه ، فكان مأموراً به بطريق الأَوْلى ، وكذلك قوله تعالى: **{ .. وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ .. }** [٢] قالوا: والمشاورة إنما تكون فيما يحكم فيه بطريق الاجتهاد لا فيما يحكم فيه بطريق الوحي ، وقوله تعالى: **{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ .. }** [٣] ، وقوله تعالى: **{ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. }** [٤] ، وهذا يدل على أن العتاب كان على شيء وقع على خلاف الأَوْلى ، ولا يكون هذا إلا في الاجتهاد فيما لا وحي فيه ، وقوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }** [٥] .. وغير ذلك من الآيات.

ولهم أدلة عملية من السنة النبوية تدل على وقوع الاجتهاد منه – ﷺ – ومن ذلك : ما روي عنه أنه قال في مكة: " لا يُختلى خلاها ولا يُعضد شجرها " فقال العباس : إلا الإذخر ، فقال: " إلا الإذخر " [٦]،

=

[١] سورة الحشر ، من الآية /٢ .

[٢] سورة آل عمران ، من الآية /١٥٩ .

[٣] سورة الأنفال ، من الآية /٦٧

[٤] سورة التوبة ، من الآية /٤٣

[٥] سورة التحريم ، الآية/١

[٦] رواه البخاري : كتاب المغازي ، باب من شهد الفتح ، ص/٧٧٩ ، برقم (٤٣١٣) ، ومسلم في صحيحه : كتاب الحج ، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها.. ص/٥٦٣ برقم (١٣٥٣).

ومعلوم أن الوحي لم ينزل عليه في تلك الحالة، فكان الاستثناء بالاجتهاد ، وما روي عنه في حجة الوداع : " لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت " [١] ، فعلم أن سوق الهدى كان بالاجتهاد ، وإلا لم يكن هناك معنى للندم على فعله مفضلاً عدم سوق الهدى ومثل ذلك لا يكون عملاً منه بالوحي ، وكذلك في قصة لحوم الحمر الأهلية في يوم خيبر عندما أمرهم بكسر القدور ، فقالوا: أو نغسلها ، قال: " أو ذاك " [٢]. فدل على الاجتهاد وإلا لو كان الأمر بكسر القدور وحي ما جاز له العدول عنه.

واستدل الجمهور - أيضاً - بالمعقول على وقوع الاجتهاد منه - ﷺ - فقالوا: العمل بالاجتهاد أشق من العمل بالنص ، لأنه يحتاج إلى إتعاب النفس في بذل الوسع ، فيكون أكثر ثواباً ، لقوله - ﷺ - لعائشة: " أجرك على قدر نصبك " [٣] فلو لم يكن النبي - ﷺ - عاملاً بالاجتهاد مع أن بعض أمته قد عمل به ، لكان يلزم منه اختصاص بعض أمته بفضيلة لم تقع له وهذا باطل ، لأن النبي - ﷺ - أفضل الناس أجمعين .

---

[١] رواه البخاري في صحيحه : كتاب الحج ، باب تقضي الحائض المناسك كلها ، ص/٢٩٠ برقم (١٦٥١) .

[٢] رواه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ، ص/٧٦١ برقم (٤١٩٦) .

[٣] رواه البخاري في صحيحه : كتاب العمرة ، باب العمرة على قدر النصب ، ص/٣٢٠ برقم (١٧٨٧) .

والراجح هو قول الجمهور ، لقوة أدلتهم ، ولأن أدلة المانعين لم تسلم من النقد والتفنيد . [١]

* ولكن هل يلزم من قول الجمهور بجواز الاجتهاد للنبي – ﷺ – أن يقع منه خطأ في اجتهاده ؟

اتفق العلماء على أن الرسول – ﷺ – لا يُقَرّ على الخطأ في اجتهاده ، حتى لا يسري الخطأ وتقلده أمته فيه ، واختلفوا في جواز الخطأ عليه في الاجتهاد ، فقال جماعة ، منهم: الرازي والبيضاوي وابن السبكي بامتناع ذلك تنزيها لمقام النبوة عن الخطأ في الاجتهاد ، وكذلك نقل هذا النفي عن الروافض، وذهب أكثر العلماء إلى أنه يجوز الخطأ على النبي – ﷺ – فيما لا يرجع إلى التبليغ بشرط ألا يُقَر عليه ، وقالوا: إنه لو لم يجز عليه الخطأ في الاجتهاد لما وقع منه ، لكنه وقع فيكون جائزاً ، وأوردوا عدَّة أدلة ، من أبرزها حديث تأبير النخل ، وفيه: " أن النبي – ﷺ – مر بقوم يلقحون النخل ، فقال: لو لم تفعلوا لَصَلُح ، فخرج شيصاً ، قال: فمر بهم فقال: ما لنخلكم ؟ فقالوا: قلت كذا وكذا ، قال: أنتم أعلم بأمور دنياكم " وفي رواية: " إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظناً ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا

---

[١] انظر: الإحكام: للآمدي ٣٢٣/٢ ، ٣٢٤ ، والمستصفى: للغزالي ٥٢٥/٢ ، ٥٢٦ ، وفواتح الرحموت ٦٠٣/٢ ، والسنة والتشريع: د. موسى لاشين ، ص/١٨-٢٠ ، وأفعال الرسول – ﷺ – ودلالتها على الأحكام الشرعية : د. محمد سليمان الأشقر ، ١٥٦/١ .

حدثتكم عن الله بشيء فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله " ، وفي رواية: " إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر ". [١]

* وهل يلزم من تجويز الخطأ عليه في بعض اجتهاده - ﷺ - إخراج اجتهاده ، أو ما جانب الصواب فيه من دائرة الوحي ؟

قال الإمام الشاطبي : (فاعلم أن النبي - ﷺ - مؤيد بالعصمة ، معضود بالمعجزة الدالة على صدق ما قال وصحة مابيَّن ، وأنت ترى الاجتهاد الصادر منه معصوماًً بلا خلاف ، إما بأنه لا يخطئ البتة ، وإما بأنه لا يُقَر على خطأ إن فرض ، فما ظنك بغير ذلك ؟) . [٢]

وبهذا يمكن القول : بأن ما يصدر عن النبي - ﷺ - من اجتهاد إما أن يوافق حكم الله أَوْ لا ، فإن وافق حكم الله فهو حكم الله على لسان نبيه - ﷺ - وإن لم يوافق حكم الله عَدَّله إلى حكمه - جل شأنه - وإذن تصبح الأحكام الدينية التي حكم بها رسول الله - ﷺ - أحكام

---

[١] الروايات الثلاث أخرجها مسلم في صحيحه : كتاب الفضائل ، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره - ﷺ - من معايش الدنيا على سبيل الرأي ، ص/١٠٣٥ ، برقم (٢٣٦١ - ٢٣٦٢ - ٢٣٦٣) .

[٢] الموافقات في أصول الشريعة : للشاطبي ٢/٤٥٨ بتصرف

الله في النهاية ، وقبل لقائه الرفيق الأعلى ، وتصير تلك الأحكام حجة إجماعاً بلا شك. [(١)]

ثالثاً - تقسيم السنة إلى تشريعية وغير تشريعية :

ويتفرع عن قضية اجتهاد النبي - ﷺ - وهل هو من الوحي أم لا ، قضية أخرى وهي تقسيم السنة إلى تشريعية وغير تشريعية ، وقد ذهب إلى ذلك بعض العلماء بحسن نية فاستُغِل استغلالاً سيئاً.

قال الدكتور موسى لاشين: (غفر الله للقائلين بأن السنة تشريع وغير تشريع، وللقائلين بالمصلحة ، غفر لهم وسامحهم ، لقد فتح هؤلاء وهؤلاء باباً لم يخطر لهم على بال ، القائلون بأن السنة تشريع وغير تشريع قصدوا بغير التشريع ما ورد منها خاصاً بالصناعات ، والخبرات كالزراعة والطب ، ولم يخطر ببالهم أن من سيأتي بعدهم سيستدل بتقسيمهم ليدخل المعاملات وأحاديث البيع والشراء والإجارة ، ويدخل ما قاله النبي - ﷺ - من أحاديث في العادات ، وشئون الاقتصاد والسياسة والإدارة ، والحرب ، وغير ذلك في السنة غير التشريعية ، وهم من هذا القول برءاء ، أما ما جعلوه مما سبيله الحاجة البشرية ، كالأكل والشرب والنوم واللباس وغيره ، من السنة التشريعية ، فهذا الكلام على

---

(١) انظر: السنة والتشريع : الدكتور/ موسى لاشين ، ص/١٨-٢٠ ، وحجية السنة : للدكتور/ عبد الغني عبد الخالق ، ص/٢٨٣ ، والفقه الإسلامي مرونته وتطوره : الشيخ جاد الحق على ، ص/٢٦ .

عمومه مرفوض ، وفي حاجة إلى تحقيق ، فالأكل والشرب – مثلاً – كلام عام يشمل المأكول والمشروب ، ويشمل الأواني والهيئة أو الكيفية. [١]

فهل بيان المأكول والمشروب المحرم والمكروه والمباح من السنة غير التشريعية؟ وهل حديث: " أحلت لكم ميتتان ودمان .. " [٢] وحديث: " أُكِل الضب على مائدة رسول الله – ﷺ " [٣] سنة غير تشريعية ؟ اللهم لا.

وكذلك نهيه – ﷺ – عن الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة وأواني الكفار إلا بعد غسلها ، فهذا تشريع قطعاً ، أما أنه – ﷺ – أكل في قطعة من الفخار ونحن نأكل في الأواني الفاخرة غير الذهبية والفضية فهذا من المباحات ، والإباحة تشريع .. فماذا في الأكل والشرب من السنة غير التشريعية؟!

إن قصدوا بالسنة غير التشريعية في ذلك السنة غير الملزمة ، وهي المباحات؛ كان الخلاف بيننا لفظياً ، وإن قصدوا ما هو مطلوب على وجه الوجوب أو الندب وما هو منهي عنه على وجه الحرمة أو الكراهة

---

(١) السنة والتشريع ، ص/٢٢ .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه : كتاب الأطعمة ، باب الكبد والطحال ، ص/٥٠٣ برقم (٣٣١٤) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ، ١٠٧/٣ ، برقم (٣٢٧٨) .

(٣) رواه مسلم في صحيحه : كتاب الصيد والذبائح ، باب إباحة الطب ، ص/٨٦٧ برقم (١٩٤٤) .

فهو غير مسلَّم ، ومثال ذلك ما يقال في النوم واللبس ، وكل ما هو خاص بالحاجة والطبيعة البشرية كما يقولون ، حتى قضاء الشهوة مع الزوجة له قواعده وأصوله وحدوده المشروعة ، والتحقيق : أنه من الخطأ أن نطلق هذا الإطلاق : (السنة غير التشريعية) على ما سموه الحاجة البشرية من أكل وشرب وما سبيله التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية من زراعة وطب ولباس وغيره ، وكذا ما يصدر عنه بوصفه إماماً ورئيساً للدولة المسلمة أو بوصفه قاضياً ، فكل هذه الأمور التي أطلقوا عليها سنة غير تشريعية ؛ فمنها الواجب شرعاً ، ومنها المحرم شرعاً ، ومنها المكروه ومنها المندوب ، ومنها المباح ، ومنها الممنوع شرعاً). [١]

وقال الدكتور/ عبد الغني عبد الخالق: (هذا وإخراج الأمور الطبيعية من السنة أمر عجيب ، وأعجب منه: أن يدَّعي بعضهم ظهوره ، مع إجماع الأئمة المعتبرين على السكوت عنها ، وعدم إخراجها ، ولست أدري لم أخرجها هؤلاء، أأخرجوها لأنها لا يتعلق بها حكم شرعي ؟ وكيف يصح هذا مع أنها من الأفعال الاختيارية المكتسبة ، وكل فعل اختياري من المكلف لابد أن يتعلق به حكم شرعي من وجوب أو ندب أو إباحة أو كراهة أو حرمة – وفعل النبي الطبيعي مثل

---

[١] السنة والتشريع ، ص/٢٢-٣٣ بتصرف ، وانظر: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: د. عماد الشربيني ١/٤٦٣، ٤٦٤

الفعل الطبيعي من غيره ، فلابد أن يتعلق به واحد من الأحكام ، وليس هذا الحكم الكراهة ولا الحرمة لعصمته ، وليس الوجوب ولا الندب لعدم القربة فيه ، فلم يبق إلا الإباحة ، وهي حكم شرعي ، فقد دل الفعل الطبيعي منه – ﷺ – على حكم شرعي وهو الإباحة ، ولقد أجمع الأصوليون في باب أفعاله – ﷺ – على أن أفعاله الطبيعية تدل على الإباحة في حقه – ﷺ – وفي حق أمته ، وكل يحكي الاتفاق على ذلك ، عن الأئمة السابقين). [١]

وأصل هذه القضية ما بحثه علماء الأصول حول التأسي بالنبي – ﷺ – وهل يلزم التأسي به في كل شيء ، أم يلزم في الفعل الذي صدر منه متعلقاً بالعبادة والتشريع ، وأما الأفعال الجبلية والعادات والأمور الدنيوية فلا يلزم التأسي به فيها !!

وخلاصة ذلك البحث الأصولي : أن ما كان من الأفعال الجبلية ، كالقيام والقعود والأكل والشرب ونحوه ، فلا نزاع في كونه على الإباحة بالنسبة له ولأمته ، وما كان مما ثبت اختصاصه به فلا يدل ذلك على التشريك بيننا وبينه فيه إجماعاً ، كاختصاصه بوجوب قيام الليل والوصال في الصوم ، والزيادة في النكاح على أربع ونحو ذلك ، وما عرف كون فعله بياناً لنا فهو دليل من غير خلاف ، وذلك إما بتصريح

---

[١] حجية السنة د. عبد الغني عبد الخالق ، ص/ ٧٩ بتصرف ، وانظر: البحر المحيط : للزركشي ٤/١٧٦ .

مقاله ، أو بقرائن أحواله ، والبيان تابع للمبَّين في الوجوب والندب والإباحة ، وأما ما لم يقترن به ما يدل على أنه للبيان لا نفياً ولا إثباتاً ، فإما أن يظهر فيه قصد القُربة أو لم يظهر ، فإن ظهر فيه قصد القربة ، فقد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم ، إنَّ فعله – ﷺ – محمول على الوجوب في حقه وفي حقنا ، ومنهم من قال: بحمله على الندب ، وأما ما لم يظهر فيه قصد القربة فقد اختلفوا فيه على نحو اختلافهم فيما ظهر فيه قصد القربة ، غير أن القول بالوجوب والندب فيه بعيد ، والوقف والإباحة أقرب. [١]

قلت: بناء على ما سبق فليس من السنة شيء غير تشريعي ، وليس شيء منها خارج دائرة الوحي ، والتأسي به في كل أحواله داخل في قوله تعالى : **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً }** [٢] وهذا التأسي يختلف حكمه بحسب طلب الشارع.

ومع ما سبق بيانه فإنه قد أكثر من الاستشهاد بحديث تأبير النخل أناس أرادوا عزل السنة عن شئون الحياة العملية كلها ! فالعادات والمعاملات ، وشئون الاقتصاد والسياسة والإدارة والحرب ونحوها يجب

---

[١] انظر: الإحكام : للآمدي ١/١٣٨، ١٣٩ ، وفواتح الرحموت ٢/٣٤١-٣٤٧ ، والمستصفى ٢/١٠٧، ١٠٨، والبحر المحيط : للزركشي ٤/١٧٦-١٨٤ .

[٢] سورة الأحزاب ، الآية / ٢١ .

أن تُتْرك للناس ، ولا تدخل السنة فيها آمرة ولا ناهية ولا موجهة ولا هادية ، وأصبح هذا الحديث هو المشجب الذي يعلق عليه من شاء ما شاء من أمور الشرع التي يراد التحلل منها، فقد أراد بعضهم أن يحذف النظام السياسي لأن أمر السياسة أصولاً وفروعاً من أمر دنيانا فنحن أعلم به ، وليس شأن الوحي أن يكون له فيها تشريع أو توجيه ، فالإسلام عند هؤلاء دين بلا دولة ، وأراد آخرون أن يحذفوا النظام الاقتصادي كله من الإسلام ، بسبب فهمهم لهذا الحديث !! والمهم أن هؤلاء أرادوا أن يهدموا بهذا الحديث كل ما حوت دواوين السنة الذاخرة من أحاديث البيوع والمعاملات والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكأن النبي – ﷺ – قال هذا الحديث لينسخ به جميع أقواله وأعماله وتقريراته الأخرى. [١]

ولقد علَّق الشيخ الجليل أحمد محمد شاكر ، على هذا الحديث في المسند فقال: (هذا الحديث مما طنطن به ملحدوا مصر وصنائع أوربا فيها من عبيد المستشرقين وتلامذة المبشرين ، فجعلوه أصلاً يحجون به أهل السنة وأنصارها ، وخدام الشريعة وحماتها ، إذا أرادوا أن ينفوا شيئاً من السنة أو ينكروا شريعة من شرائع الإسلام في المعاملات وشئون الاجتماع وغيرها ، يزعمون أن هذه من شئون الدنيا ، ويتمسكون برواية أنس " أنتم أعلم بأمر دنياكم " ... والحديث واضح صريح لا يعارض

[١] انظر: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام ٤٥٧/١ ، ٤٥٨ ، والسنة والتشريع ص/٣٢،

نصاً ولا يدل على عدم الاحتجاج بالسنة في كل شأن ، وإنما في قصة تلقيح النخل أن قال لهم: " ما أظن ذلك يغني شيئاً " فهو لم يأمر ولم ينه ، ولم يخبر عن الله ، ولم يسن في ذلك سنة حتى يتوسع في ذلك المعنى إلى ما يهدم به أصل التشريع). [١]

ولاشك أن خطورة الشطط والتوسع في فهم هذا الحديث ، والنسج عليه في تقسيم السنة إلى تشريعية ملزمة ، وغير تشريعية ، تظهر أكثر مع تزايد معدلات العلمنة التي تسعى لإقصاء التشريع عن واقع الحياة ، ويجدر التنبيه إلى أن عجز المؤمن عن تطبيق بعض التكاليف الشرعية لا يبرر له إنكارها ، فالإنكار أعظم جرماً من ترك العمل مع الإقرار.

---

[١] مسند الإمام أحمد ١٧٧/٢ الحديث (١٩٣٥) بالهامش

المبحث السادس

جمع السنة النبوية

يُعتبر الحديث عن جمع السنة النبوية من أهم النقاط التي يؤصل بها للوحي الإلهي في السنة النبوية ، فبمعرفة تاريخ جمع السنة والمراحل التي مرت بها ، تطمئن النفس إلى أنه لم يَضِع شيء من الوحي ، وتحصل الثقة بهذا الجزء من الوحي ، ولذا ركز علماء علوم القرآن على ذكر جمع القرآن ومراحله التي مر بها ، وأفردوه كنوع من علوم القرآن ، قال الزركشي في البرهان : (النوع الثالث عشر: في بيان جمعه ومن حفظه من الصحابة رضي الله عنهم) [١] ، وقال السيوطي في الإتقان: (النوع الثامن عشر: في جمعه وترتيبه). [٢]

والأمر بالنسبة للسنة لم يكن كذلك ، فلا تكاد تقف في كتب علوم الحديث على ما يشفي الغليل في جمع السنة النبوية ، لكن بعدما نشط الطاعنون في حجية السنة والمنكرون لها مؤخراً نهض كثير من العلماء للكلام عن جمع السنة ، وراحوا يستقصون أبعاد المسألة في مختلف المصادر ، وجمعت مادة علمية كثيرة ، غير أنني سأركز في هذا المبحث على معالجة ما شاع في الأوساط العلمية من أن السنة النبوية

---

[١] البرهان في علوم القرآن ١/٢٩٥

[٢] الإتقان في علوم القرآن ١/١٦٠

ظلت تنقل بالرواية الشفهية إلى القرن الثاني الهجري، حيث بدأ تدوينها بعد ذلك ، مما يستدعي الشك في صحتها ، ولاشك أن هذا الرأي يحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء للتحقق من مدى صحته ومطابقته للواقع ، وسأسلك في هذا السبيل تقسيم المراحل التي مر بها جمع السنة إلى ثلاثة مراحل مهمة :

أولاً – المرحلة الأولى : مرحلة الكتابة :

هذه المرحلة تغطي العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين وبعده ، فمما لاشك فيه أن الكتابة انتشرت في العصر النبوي على نطاق أوسع مما كانت عليه في الجاهلية ، وذلكِ لما جاء في القرآن من الحث على التعلم ، وتحريض النبي – ﷺ – أمته على ذلك ، وكثر الكاتبون بصورة ملحوظة بعد الهجرة ، عندما استقرت الدولة الإسلامية ، فقد أصبحت مساجد المدينة مراكز للتعليم ، يتعلم فيها الصحابة القراءة والكتابة بجوار تعلمهم للقرآن الكريم ، ولا يفوتنا أن نذكر أثر غزوة بدر في تعليم صبيان المدينة ، حينما أذن رسول الله – ﷺ – لأسرى بدر بأن يفدي كل كاتب منهم نفسه بتعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة والقراءة ، ثم اتسع نطاق التعليم وانتشر بانتشار الصحابة – رضي الله عنهم – في الآفاق الإسلامية ، وكثرت حلقات العلم ، حتى أضحت بعض الحلقات تضم آلاف الصبيان ، كما يذكر في حلقة الضحاك بن مزاحم أن طلابه فيها كانوا يبلغون ثلاثة آلاف صبي ، وقال مسلم بن مشكم :

قال لي أبو الدرداء : اعدد من يقرأ القرآن عندي ، فعدَدْتُهُم بأمره ألفاً وستمائة ونيفاً ، وكان لكل عشرة منهم مقرئ [١] .

وإذا كانت هناك حركة علمية بهذا النشاط ، فإن هذا يجعلنا نؤكد أن ثمة جهوداً بُذلت في ذلك الوقت لجمع السنة ، وإن لم تأخذ طابع الجمع الرسمي – ولا نسلم ما ذهب إليه ابن قتيبة وابن خلدون من تعميم القول: بأن الصحابة كانوا أميين، لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان، وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجي.[٢]

ففي عهد النبي – ﷺ – كتبت بأمره وثائق ومعاهدات ورسائل ، كالوثيقة التي كتبها عندما دخل المدينة ونظم فيها العلاقات بين المهاجرين والأنصار من جهة ، وبين المسلمين وغير المسلمين من جهة أخرى ، وقد ذكرها أبو عبيد القاسم في كتاب الأموال في نحو ثلاث ورقات [٣] ، ومثلها الوثيقة التي عاهد فيها النبي – ﷺ – نصارى

---

[١] انظر: السنة قبل التدوين : د. محمد عجاج الخطيب ، ص/ ١٩٦–١٩٨ ، وتهذيب التاريخ الكبير : لابن عساكر ٦٩/١

[٢] انظر: تأويل مختلف الحديث : لابن قتيبة ، ص/٣٦٦ ، والمقدمة : عبد الرحمن ابن خلدون، ص/٥٤٣ .

[٣] انظر: الأموال: لأبي عبيد القاسم بن سلام ، ص/٢١٥ ، والسيرة النبوية : لابن هشام ٥٠١/١–٥٠٤ .

نجران وفصّل فيها الحقوق والواجبات ، وغير ذلك من المعاهدات وعقود الصلح التي تضمنت كثيراً من السنن والتشريعات. [١]

وكذلك كتاب الصدقات الذي فصل فيه الرسول - ﷺ - مقادير الزكاة الواجبة في الأموال وكيفية أخذها وجبايتها ، وهو كتاب طويل ، وكان عليه خاتم رسول الله - ﷺ - وظل يتناقله الصحابة في عصر الخلفاء الراشدين حتى نسخه ابن شهاب الزهري بعد أن أطلعه عليه سالم بن عبد الله بن عمر. [٢]

وكذلك صحيفة عمرو بن حزم عندما بعثه النبي - ﷺ - إلى اليمن ، فكتب له كتاباً فيه كثير من التشريعات والسنن الاقتصادية والجنائية وغيرها ، وهي صحيفة طويلة أوردها ابن حبان والحاكم - وغيرهما في ثلاث ورقات [٣] ، وقد قال خليفة بن خياط في ذلك: (بعث رسول الله - ﷺ - عمرو بن حزم لليمن ليفقههم في الدين ، وليعلمهم السنة ، ويأخذ صدقاتهم) ، وقد بقي هذا الكتاب عند آل عمرو بن حزم حتى صار عند حفيده أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم والي المدينة

---

[١] انظر: الطبقات الكبرى : محمد بن سعد ١/١٩٨-٢٢١ .

[٢] انظر: تاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين: د. حاكم المطيري ، ص/٣٦ .

[٣] انظر: المستدرك على الصحيحين : للحاكم ١/٣٩٥-٣٩٧ ، وصحيح ابن حبان ، عند الحديث رقم (٦٥٥٩) .

وقاضيها في عهد عمر بن عبد العزيز ، وهو الذي طلب إليه عمر أن يجمع السنة. [١]

وكذلك كان عند علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – صحيفة كتبها بأمر رسول الله – ﷺ – فيها كثير من التشريعات والأحكام والسنن ، وهي مطابقة إلى حد كبير لصحيفة عمرو بن حزم [٢] ، كما أمر النبي – ﷺ – بكتابة خطبته في يوم الفتح لأبي شاه اليمني لما طلب منه ذلك ، وكذلك كتبه إلى الملوك والأمراء. [٣]

فهذه الرسائل والعهود والمواثيق والصحف تعتبر جزءً من تلك المرحلة في جمع السنة النبوية ، وقد تمت في حياة النبي – ﷺ – وبأمره.

يضاف إلى ذلك ما كتبه الصحابة في حياة رسول الله – ﷺ – بإذن منه ، حيث استأذنه بعض الصحابة في ذلك فأذن لهم ، ومنهم: عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقد قال: (كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله – ﷺ – أريد أن أحفظه ، فنهتني قريش ، وقالوا: تكتب كل شيء سمعته من رسول الله – ﷺ – ورسول الله – ﷺ – بشر يتكلم في

---

[١] تاريخ خليفة بن خياط ، ص/٩٤ ، وانظر: تاريخ تدوين السنة ، ص/٣٨

[٢] انظر: مصنف عبد الرزاق الصنعاني ٤/٥–٧ ، فقد رواها كاملة

[٣] انظر: صحيح البخاري : كتاب العلم ، باب كتابة العلم ، ص/٢٩ برقم (١١٢)

الغضب والرضا ، فأمسكتُ ، فذكرتُ ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال: " اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق ". [١]

وقد كان أبو هريرة يغبط عبد الله بن عمرو على كتابة الحديث ، فقد قال: (ما من أصحاب النبي - ﷺ - أحد أكثر حديثاً عنه مني ، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب). [٢]

وقد كتب عبد الله بن عمرو كثيراً من الأحاديث - كما قال الذهبي - وكان يسمي صحيفته التي كتبها بـ (الصادقة). [٣]

(عند آل عبد الله بن عمرو بن العاص نسخة كتبها عن النبي - ﷺ - وإذا كانت نسخة مكتوبة من عهد النبي - ﷺ - كان هذا أوكد لها ، وأدل على صحتها ، ولهذا كان في نسخة عمرو بن شعيب من الأحاديث الفقهية التي فيها مقدار ما احتاج إليه عامة الفقهاء). [٤]

---

[١] رواه أبو داود في سننه: كتاب العلم ، باب في كتابة العلم ، ص/٥٦١ برقم (٣٦٤٦) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٤٠٨/٢ برقم (٣٦٤٦)

[٢] رواه البخاري في صحيحه : كتاب العلم ، باب كتابة العلم ، ص/٢٩ ، برقم (١١٣)

[٣] انظر: تذكرة الحفاظ : للذهبي ٤٢/١ ، والطبقات الكبرى : لابن سعد ٢٨٥/٢

[٤] مجموع الفتاوى : ، ٨/١٨ ، ٩

وكتب نفر آخرون من الصحابة الحديث منهم : أنس بن مالك ، وسعد بن عبادة الأنصاري ، وسمرة بن جندب .. وغيرهم. [١]

وبهذا ثبت أن بعض الصحابة كتبوا في عهد النبي – ﷺ – جزءً كبيراً من الأحاديث والسنن بعد أن أذن لهم الرسول – ﷺ – بالكتابة ، فكانت هذه الأحاديث – مع كونها محفوظة في صدورهم – مكتوبة عندهم في صحف أو جلود ، ولم تكن هذه الأحاديث في تلك المرحلة مدونة ولا مصنفة في كتاب واحد، بل كان حالها كحال وشأن القرآن في عهد الرسول – ﷺ – حيث لم يكن مكتوباً في كتاب واحد ، بل في جلود ورقاع وصحف متفرقة. [٢]

وقد يعكر على هذا بعض أحاديث ورد فيها نهي عن كتابة شيء غير القرآن، أصحها حديث أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله – ﷺ – قال" " لا تكتبوا عني – ومن كتب عني غير القرآن فليمحه .. ". [٣]

وللعلماء في التوفيق بين النصوص الواردة في النهي والواردة في الإباحة عدة أقوال ، ملخصها أن الإذن بالكتابة متأخر فهو ناسخ للنهي

---

[١] انظر: تاريخ تدوين السنة ، ص/٤٤ – ٤٦ ، ودراسات في الحديث النبوي د. محمد مصطفى الأعظمي ٩٢/١ – ١٤٢ ، حيث ذكر أكثر من خمسين صحابياً ممن كتب الحديث ، وهذا أيضاً لا يفيد الحصر ، ولا يعني أن غيرهم لم يكتب

[٢] انظر: تاريخ تدوين السنة ، ص/٤٥ ، ٤٦ .

[٣] رواه مسلم في صحيحه : كتاب الزهد والرقائق ، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، ص/١٢٨٥ برقم (٣٠٠٤) .

، وقيل: إن النهي خاص بكتابة الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة خشية الالتباس ، وقيل: إن النهي خاص لمن لا يتقن الكتابة مخافة الوقوع في الغلط ، والإذن لمن يحسنها ، وقيل: إن النهي في حق من يثق بحفظه وخيف اتكاله على الكتابة ، والإذن لمن لا يوثق بحفظه كأبي شاه ، وقيل: إن النهي كان خاصاً بالتدوين الرسمي ، والإذن كان سماح بتدوين نصوص من السنة لظروف وملابسات خاصة ، ورجح بعض الباحثين القول بنسخ النهي عن الكتابة ، ورجح بعضهم عدم النسخ وسلك طريق الجمع بين الأقوال وأنه لا تعارض بينهما. [١]

وبعد وفاة النبي – ﷺ – كان بعض الصحابة لا يزال يرى النهي عن الكتابة لذا أحجم ، كأبي بكر الذي أحرق صحيفته التي كانت تشتمل على خمسمائة حديث [٢]، وعمر بن الخطاب الذي أراد أن يكتب السنن فاستفتى أجلة الصحابة فأشاروا عليه بأن يكتب ، إلا أنه عدل عن ذلك ، وقال: لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً [٣] ، فقد خاف عمر أن ينكب الناس على دراسة غير القرآن ويهملوا كتاب الله – عز وجل – ويروى

---

[١] انظر: السنة قبل التدوين ، ص/٢٠١ ، ٢٠٢ ، والمدرسة الحديثة في مكة والمدينة وأثرها في الحديث وعلومه : محمد الثاني عمر موسى ٤٨٢/١ – ٤٩٠ .

[٢] انظر: تذكرة الحافظ : للذهبي ١ / ٥ .

[٣] انظر: جامع بيان العلم وفضله ٦٤/١ ، والطبقات الكبرى : لابن سعد ٢٠٦/٣

كذلك عن أبي موسى وابن عباس وابن مسعود وغيرهم كراهة كتابة الحديث ، لنفس السبب وهو الخوف من أن يلتبس بالقرآن.[١]

وهناك أخبار أخرى تؤكد أن الصحابة بعد وفاة النبي - ﷺ - كانوا يكتبون الأحاديث ، حتى بعض من ثبت عنه كراهة ذلك عدل عن رأيه حينما زالت أسباب المنع ، وخاصة بعد أن جُمع القرآن في المصاحف التي أرسلت إلى الآفاق ، فكانوا يكتبون الحديث لأنفسهم ، وكتب طلابهم بين أيديهم ، وأصبحوا يتواصون بكتابة الحديث وحفظه ، كما ثبت ذلك عن عليّ وابن عباس والحسن وأنس وابن مسعود وعائشة وغيرهم. [٢]

ثانياً - المرحلة الثانية : مرحلة التدوين :

وهذه المرحلة تم فيها جمع الأحاديث المتفرقة في الصحف والجلود وكذلك المحفوظة في الصدور وتدوينها في كتب ، وهي تشبه إلى حد كبير مرحلة جمع القرآن في عهد أبي بكر - رضي الله عنه - وقد بدأت هذه المرحلة في أواخر عهد الصحابة (نحو ٧٠ هـ) حيث قام علماء التابعين من أبناء الصحابة وتلاميذهم بجمع السنة وكتابتها في كتب ، وقد شملت هذه الحركة العلمية جميع المدن الإسلامية ، التي كان فيها أصحاب رسول الله - ﷺ - وفي أواخر هذه المرحلة (نحو

---

[١] انظر: السنة قبل التدوين ، ص/٢٠٦ ، ٢٠٧

[٢] انظر: تاريخ تدوين السنة ، ص/٤٩ ، والسنة قبل التدوين ، ص/٢١١

١٠٠ هـ) بدأ العلماء في تدوين الكتب ، وقد ذكر الذهبي هذه الطبقة وهي التي تبدأ بمكحول (ت ١١٣ هـ) والزهري (ت ١٢٤ هـ) ، وتنتهي بربيعة بن عبد الرحمن (ت ١٣٦ هـ) وهم من تلاميذ الصحابة ، فقال عنهم: (وشرع الكبار في تدوين السنن وتأليف الفروع وتصنيف العربية). [١]

وقد قام بجمع السنة في هذه المرحلة جهتان:

١- جهة علمية: وتتمثل في العلماء في جميع المدن الإسلامية التي يتوافر فيها عدد من الصحابة.

٢- جهة رسمية: وتتمثل في الأوامر التي أصدرها الخلفاء والأمراء إلى بعض العلماء بجمع الحديث النبوي ، وقد اشتهر بين الناس أن عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١ هـ) هو أول من أمر بجمع السنة أمراً رسمياً ، إلا أن هناك ما يؤكد أن والده عبد العزيز بن مروان (ت ٨٥ هـ) وجده الخليفة مروان بن الحكم (ت ٦٥ هـ) كانا أسبق منه في القيام بهذه المهمة ، فقد وجَّه عبد العزيز بن مروان – وكان والياً على مصر – رسالة إلى كثير بن مرة الحضرمي (ت ٨٠ هـ) وهو من كبار أتباع الصحابة ، قال فيها: (اكتب إليّ بما سمعت من أصحاب رسول الله – ﷺ – من أحاديثهم إلا حديث أبي هريرة فإنه

---

[١] تذكرة الحفاظ : للذهبي ١٦٠/١

عندنا) [١] ، ويبدو أن عبد العزيز كان قد أرسل إلى آخرين يسألهم عن أحاديث وسنن النبي – ﷺ – فقد كتب إليه الصحابي عبد الله بن عمر – عم زوجته – بعض الأحاديث. [٢]

وقول عبد العزيز في رسالته إلى كثير بن مرة: (إلا حديث أبي هريرة فإنه عندنا) يؤكد ما ذكرته المصادر التاريخية والحديثية من أن والده الخليفة مروان بن الحكم قد كتب حديث أبي هريرة عن النبي – ﷺ – ثم اختبر حفظه لها بعد سنة فوجد روايته متطابقة. [٣]

وقد تأثر عمر بن عبد العزيز بأبيه وجده في عنايتهما بالسنة النبوية منذ كان أميراً على المدينة في خلافة ابن عمه الوليد بن عبد الملك (ت ٩٣ هـ) ، كما أن هشام بن عبد الملك أيضاً كان له اهتمام بكتابة وجمع السنة ، وكان هؤلاء الخلفاء يجمعون هذه الأحاديث في خزانة الدولة ، للاحتفاظ بها والرجوع إليها عند الحاجة ، وهذا كله يؤكد أن عمر بن عبد العزيز لم يكن أول من دوّن السنة تدويناً رسمياً كما هو شائع ، لكن يمكن القول بأن عمر بن عبد العزيز هو أول من أمر بتدوين السنة ، أي: كتابتها في دفاتر ، فقد قال الزهري: (أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنة فكتبناها دفتراً دفتراً ، فبعث إلى كل أرض

---

[١] الطبقات الكبرى : لابن سعد ، ٣١١/٧ ، وتهذيب التذهيب : لابن حجر ٣٥٦/٦

[٢] انظر: مسند الإمام أحمد ١٥٢/٢

[٣] انظر: تاريخ تدوين السنة ، ص/٥٢

عليها سلطان دفتراً) [١] ، ففعل عمر بن عبد العزيز في تدوين السنة يشبه فعل عثمان بن عفان في جمع القرآن في مصاحف وإرسالها إلى الآفاق.

ومن أشهر الأسماء التي شاركت في الجمع في تلك المرحلة : محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) ، وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم (ت ١٢٠ هـ) وأبو الزناد (ت ١٣٠ هـ) ، وعامر الشعبي (ت بعد ١٠٣ هـ) ، ومجاهد بن جبر المكي (ت ١٠٣ هـ) ، وعروة بن الزبير (ت ٩٣ هـ) ، وعمرة بنت عبد الرحمن (ت ٩٨ هـ) ، وسعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) ، وسالم بن أبي الجعد (ت ٩٧ هـ) وعبد الله بن يزيد الجرمي أبو قلابة (ت١٠٤هـ) ، ومحمد بن سيرين (ت ١١٠ هـ) والحسن البصري (ت١١٠هـ)، وعطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ) ومكحول الدمشقي (ت١١٣هـ) ، ونافع مولى عبد الله بن عمر (ت ١١٧ هـ) ، وقتادة بن دعامة البصري (ت ١١٧ هـ) ، وعمرو بن شعيب بن محمد (ت ١١٨ هـ) ، وأبو إسحاق السبيعي (ت ١٢٧ هـ) وأيوب السختياني (ت ١٣١ هـ) ، وهمام بن منبه الصنعاني (ت ١٣٢ هـ) ، وعشرات الأسماء غير هؤلاء. [٢]

---

[١] جامع بيان العلم وفضله ٢٨٧/١

[٢] انظر: تاريخ تدوين السنة ، ص/٥٥-٨٢

وهؤلاء كانت لديهم نسخ من صحائف آلت إليهم من آبائهم ، وأضافوا إليها ما جمعوه من مجالس الإملاء عن شيوخهم من الصحابة وغيرهم ، وكتب عنهم تلاميذهم ، وأضحت الكتب المدوَّنة في تلك المرحلة تملأ البيوت والخزائن ، فقد كانوا يكتبون منذ بداية طلب العلم وحتى الموت ، حتى قال مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ): (مات يوم مات الزهري ، وإن كتبه حملت على البغال ..) [١] أي من كثرتها.

ثالثاً – المرحلة الثالثة : مرحلة التصنيف :

تُعتبر هذه المرحلة نقلة متطورة في جمع كتب السنة النبوية ، حيث ظهرت فيها الكتب مرتبة على الأبواب الفقهية ، بعد أن كان أهل الحديث يجمعون الأحاديث المختلفة في الصحف والكراريس ، وقد تضمنت المصنفات في تلك المرحلة كثيراً من الكتب المدونة في المرحلة السابقة ، وقد ظهرت تلك المصنفات والكتب في أوقات متقاربة ، وفي مناطق مختلفة من الدولة الإسلامية، وأكثر من صنفوا في تلك المرحلة كانوا من تلاميذ ابن شهاب الزهري ، وكانت هذه المصنفات تشتمل على السنن وما يتعلق بها ، وكان بعضها يسمى مصنفاً ، وبعضها يسمى جامعاً أو مجموعاً وغير ذلك ، وقد اختُلف في أول من صنف وبوَّب ، والراجح أنها أوليات مقيدة بالمكان ، فأول من صنف بمكة: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت ١٥٠ هـ) ، وأول من

---

[١] الطبقات الكبرى : لابن سعد ، ٣٥٣/٥

صنف بالمدينة: مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) ، ومحمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب (ت ١٥٨ هـ) ، وأول من صنف بالبصرة: سعيد ابن أبي عروبة (ت ١٥٦ هـ) ، أو حماد بن أبي سلمة (ت ١٦٧ هـ) ، وأول من صنف بالكوفة: سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) ، وأول من صنف باليمن: معمر بن راشد (ت ١٥٣ هـ) ، وأول من صنف بالشام: عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت ١٥٧ هـ) .. وهكذا ، وتلاهم كثير من أهل عصرهم فنسجوا على منوالهم. [١]

وكانت المصنفات في ذلك الوقت تضم الحديث الشريف وفتاوى الصحابة والتابعين مع ضم الأبواب بعضها إلى بعض كما يظهر ذلك جليّاً من موطأ الإمام مالك ، ثم رأي بعضهم أن تفرد أحاديث النبي - ﷺ - في مصنفات خاصة ، فألفت المسانيد ، وهي كتب تضم الأحاديث النبوية بأسانيدها ، بحيث تجمع أحاديث كل صحابي تحت اسمه ولو في مواضيع مختلفة ، وأول من صنف في المسانيد : أبو داود الطيالسي (ت ٢٠٤ هـ) ، ثم سار جماعة على أثره ، ويعتبر مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) أوفى تلك المسانيد وأجمعها ، ثم رأى بعض الأئمة أن يجرد الصحيح من غيره ، فكتب البخاري (ت ٢٥٦ هـ) جامعه الصحيح ، ثم مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ) ، ثم

---

[١] السنة قبل التدوين ، ص/ ٢٢١ ، ٢٢٢ بتصرف ، وانظر: مباحث في علوم الحديث: مناع القطان ، ص/٣٥ ، والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، ص/ ١٠٥ .

ظهرت الكتب الأربعة المكملة للستة [١] ، وتوالى التصنيف والتفنن في تبويب الأحاديث النبوية، وبجوار تلك الموسوعات ظهرت مصنفات في موضوعات خاصة ، مثل: الأدب المفرد والقراءة خلف الإمام ، وخلق أفعال العباد ، للبخاري ، والشمائل المحمدية للترمذي ، وتعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (ت ٣٩٤ هـ) .. وغير ذلك.

وظهرت أيضاً مصنفات في تاريخ الرواة وتراجم الرجال: كالتاريخ الكبير والأوسط والصغير : للبخاري ، وتاريخ يحيى بن معين ، والجرح والتعديل لأبي حاتم الرازي (ت ٢٧٧ هـ) ، وكتب خاصة بالثقات ، وأخرى بالضعفاء ، وكتب في العلل ، وكتب في مصطلح الحديث ، وغير ذلك.

بهذا تم تدوين السنة وجمعها ، وحصلت الثقة بهذا الجزء من الوحي الإلهي ، ووقف الجهابذة بالمرصاد لكل من يريد الدس أو الكذب فيه ، ولازالت الأمة تتناقله بالأسانيد المشهورة إلى يوم الناس هذا.

وقد أثيرت عدَّة شبهات حول جمع السنة للتشكيك في مصداقيتها من أبرزها: أنها كتبت بعد وفاة النبي – ﷺ – بنحو مائه سنة ، إذ لم تدون إلا في مطلع القرن الثاني الهجري ، بأمر عمر بن عبد العزيز (ت

---

[١] انظر: تاريخ تدوين السنة ، ص/٨٣ ، وعلوم الحديث ومصطلحه : صبحي الصالح ، ص/٤٨ ، ٤٩ ، والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، ص/١٠٥ .

١٠١ هـ) وهذه المدة تكفي لأن يحصل فيها من التلاعب والفساد ما قد حصل!! [١]

وتناقل هذه الشبهة خصوم السنة من الشيعة والعقلانيين (ورثة الفكر المعتزلي) ، والمستشرقين ، وأذنابهم من المسلمين.

وفيما عرضناه من الكلام عن مراحل جمع السنة كفاية في دحض مثل تلك الفرية ، ونزيد على ذلك أن مكمن الخطأ عند من أثاروا تلك الشبهة : في أنهم لم يفرقوا بين الكتابة والتدوين والتصنيف ، مع أن بينها فروقاً دقيقة جداً.

- فالكتابة: هي الخط ، يقال: (كتب الشيء : أي خطه). [٢]

- والتدوين: الجمع ، يقال: (دوّنه تدويناً : أي جمعه ، والديوان مجتمع الصحف). [٣]

- والتصنيف: تمييز الأشياء بعضها من بعض ، يقال: (صنفه: جعله أصنافاً). [٤]

ويتضح من ذلك أن الكتابة غير التدوين ، فالكتابة مطلق الخط ، دون مراعاة لجمع الصحف ، والتدوين مرحلة تالية للكتابة ، وتكون

---

[١] انظر: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام ٣٤٦/١

[٢] لسان العرب ٢٢/١٢ مادة (كتب)

[٣] لسان العرب ٤٥١/٤ مادة (دون)

[٤] لسان العرب ٤٢٣/٧ مادة (صنف)

بجمع الصحف المكتوبة في ديوان ، والتصنيف أدق من التدوين ، فهو ترتيب مادُوِّن في فصول وأبواب مميزة ، وبان خطأ من حمل كلمة التدوين على مجرد الكتابة ، وفهم قول العلماء: (أول من دوَّن العلم ابن شهاب الزهري) على أن المراد منه أول من كتب ، ورتب على ذلك الفهم الخاطئ – أو المتعمد – تلك النتيجة الخطيرة ، وهي التشكيك في صحة السنة النبوية ، لأنه تأخر كتابتها ، فضاع الكثير منها ، والقسم الأكبر من الحديث ليس إلا نتيجة للتطور الديني والسياسي والاجتماعي في القرنين الأول والثاني ، وأنه ليس بصحيح ما يقال من أنه وثيقة للإسلام في عهده الأول ، كما يرى جولد تسيهر وشاخت وأبور وغيرهم.